

نورمان ج. فينكلستاين

ماذا يقول غاندي؟

عن اللاعنف والمقاومة والشجاعة



ترجمة: أحمد زراقي

ماذا يقول غاندي؟

عن اللاعنف والمقاومة والشجاعة

عنوان الكتاب: ماذا يقول غاندي عن اللاعنف والمقاومة والشجاعة؟

المؤلف: نورمان ج. فينكلستاين - الطبعة الأصليَّة منشورات كتب أو. ر. (OR) نيويورك ولندن

الناشر: وزارة الثقافة والرياضة - دولة قطر

رقم الإيداع بدار الكتب القطرية:

الترقيم الدولي (ردمك):

العمل الفنِّي للغلاف: رسم جرافيتي

الإخراج والتصميم: القسم الفنِّي - مجلَّة الدوحة

هذا الكتاب: يُعبَّر عن آراء مؤلِّفه، ولا يُعبَّر -بالضرورة- عن رأي وزارة الثقافة والرياضة أو مجلَّة الدوحة

نورمان ج. فينكلستاين

ماذا يقول غاندي؟ عن اللاعنف والمقاومة والشجاعة

ترجمة: أحمد زراقي

كتاب الدوحة

مُقَدِّمَةُ الْمُتَرْجِمِ

في هذا الكتاب القصير، ينزع الباحث والمناضل نورمان فنكلستين التليف المزخرف اللامع الذي غطى على غاندي الرسالة والنضال وأحاله إلى عناوين ويافطات كما تحوّل في وقتٍ ما عبد الكريم الخطابي وتشي غيفارا إلى سطر أو فقرة في مقالة في ذكرى سنوية. أزال التليف ليُخْرِجَ غاندي الإنسان بكلّ قواه وضعفه، بكلّ صفائه وتناقضاته...

يُثَبَّت فنكلستين أن غاندي، خلافاً لجلباب المسكنة الذي ألبسه قسراً، رفع الشجاعة إلى سماوات ربما قلماً رفعها إليها أحد. من وسط الحشود المظلومة، قِلَّةٌ قليلة لها الاستعداد لحمل السلاح لرفع الظلم عن كاهلها

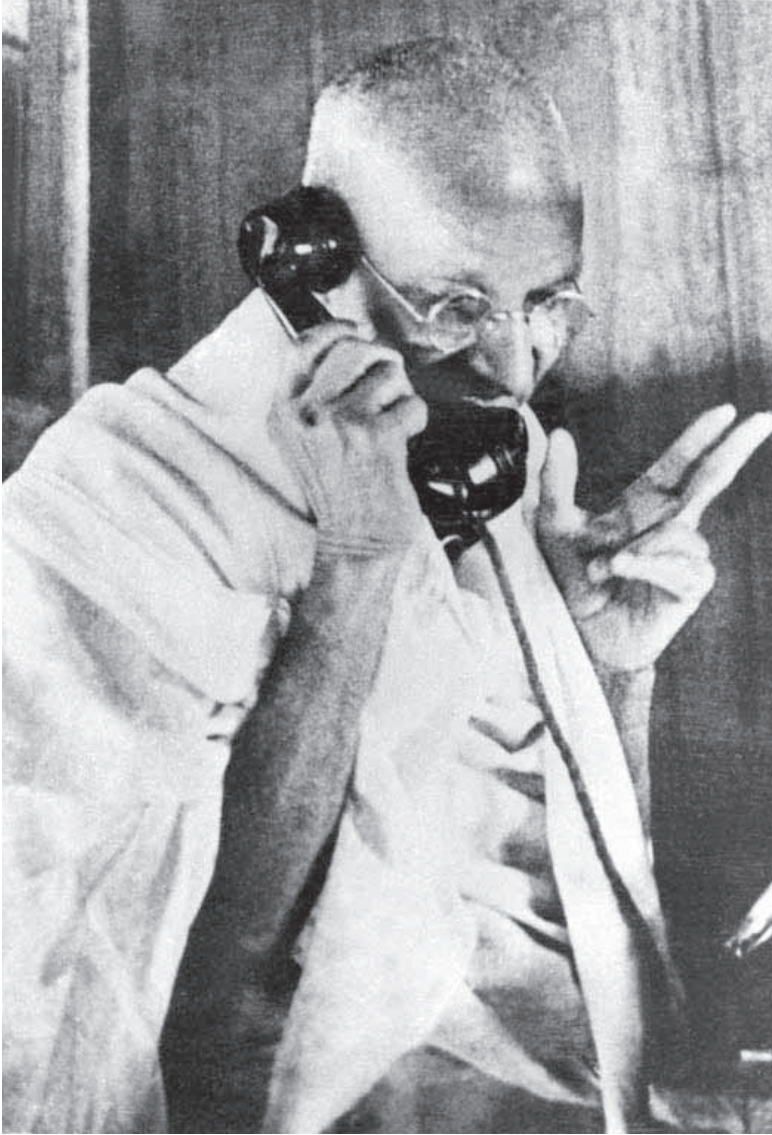
والدفاع عن حقوقها. لكن قلة أقل، أو قل أناساً من طينة أخرى، مَنْ يستطيعون إلقاء سلاحهم جانباً ليواجهوا المدفع بصدورهم العارية. هنا أبداع غاندي في نحت المقاتل الأعزل، وسار به إلى الانتصار.

وبقدر ما رفع غاندي الشجاعة فوق كل القيم والصفات، جعل الجبن أرذل الرذائل، بل إن الجبان لا يستحق في نظره أن يعيش بين البشر.

يُذكر هذا الكُتَيْبُ المناضلين من كل ألوان الطيف، وفي كل الساحات، بما في حقيبة أدواتهم من وسائل النضال السلمي وسبل النجاح فيه. بشر غاندي بقوة الحب وقهر التسامح ورسمه لوحة بوجوه الفقراء ودموعهم ودمائهم ملحمة نضالية ما زالت تكتشف أسرارها، وهذا الكُتَيْبُ من آخر المحاولات.

إلى كل المناضلين بالكلمة الواعية، والموقف الصادق، والوعي الثاقب، أهدي ترجمة هذا الكتاب.

أحمد زراقي
حزيران/يونيو 2017



غاندي (1940)

مُقدِّمة المُؤلِّف

بالرغم من كثرة استحضار اسم الماهاتما غاندي، فإنه نادرًا ما يُقرأ. لاحظت، وأنا أتفحص مجموعة أعماله من مكتبة جامعة بحثية أميركية راسخة، أنه لم يسبق أن أُستَعرِ إلا مُجلد واحد من أصل حوالي 100 مُجلد يراوح حجم كل واحد منها 500 صفحة من تركة غاندي. لقد أُختزل غاندي في ابتهال يُطابق بين اسمه واللاعنف. لكن فكره وممارسته أكثر تعقيدًا وتناقضًا مما تُوحى به هذه الصيغة. فغاندي كما تسلّمناه من التاريخ نسخة مموهة، نسخة منزوعة الدسم

مقارنةً بالنسخة الأصليّة. إنه قديس غريب الأطوار من عالم آخر لا يمكن أن يُؤذي ذبابة، ويبدو وكأنه لا يستطيع حتى لو كان ميّلاً لذلك.

ولقد كان غاندي الحقيقي فعلاً قديساً ورجلاً غريب الأطوار من عالم آخر، لكنه كان -أيضاً- من أدهى العارفين بالأعيب السياسة، بحيث يستطيع أن يسبر أفضل من أي من معاصريه مكامن القوة لدى شعبه وخصومه وحدودها.

لقد كان غاندي الحقيقي يكره العنف، لكنه كان يكره الجبن أكثر من العنف. وإذا تعدّر على أتباعه أن يجدوا في دواخلهم ما يقوون به على المقاومة اللاعنفية، كان يحثهم عندها على استجماع شجاعتهم لردّ الصاع لمن يعتدي عليهم أو يحطّ من قدرهم.

وإذا كان غاندي يُبشّر بفضيلتي اللاعنّف والشجاعة في الوقت نفسه، فلأنه كان يؤمن أن اللاعنّف يتطلّب شجاعة أكثر من العنف.

إن المقاتل الذي يتبنّى العنف يواجه نيران العدو والسلاح في يده، بينما يُتوقّع من المقاوم الذي يتبنّى اللاعنّف أن يسير رأساً إلى نيران العدو «مبتسماً» و«مبتهجاً»، وهو يُقطّع إرباً.

ومن يتذرّعون باللاعنف للفرار من معتدٍ بدلاً من مقاومته هم، في نظر غاندي، أحقّ البشر بالاحتقار ولا يستحقون الحياة.

وإن هذا الغاندي المثير للجدل الذي يجعل مقام الشجاعة فوق اللاعنّف، ويُعلي من شأن اللاعنّف، لأنه يتطلّب أقصى درجات الشجاعة، والذي كان يدعو إلى العنف إذا تعدّر على المرء أن يستجمع هذه الشجاعة، قد

تُنوسي أو مُحي ذكره إلى حدٍ كبير.

لكن حتى غاندي الذي يذكره الناس مُثير للحيرة. فمذهب ساتياغراها (لزوم الحقيقة) الذي نشره غاندي بسيط على نحوٍ مُخادع.

فهو يعني المقاومة اللاعنفية للشر، أليس كذلك؟

لكن غاندي كان يساوي بين العنف وأي شكلٍ من القوة القهرية.

بيد أنه كان ينصح المُفقرين من عمال وفلاحي الهند بحشد قوتهم الكامنة من أجل كسر إرادة الطبقات المُستغلة.

ولم تكنُ الجهة التي كان غاندي يحاول أن يلامس شغاف قلوبها بمقاومته اللاعنفية أبداً واضحة تمام الوضوح.

ولقد تحدّث أحياناً عن الرغبة في إذابة حتى قلب هيتلر ذاته.

ولكن غاندي وجّه إضرابه عن الطعام (صومه) أحياناً أخرى إلى الجمهور المتعاطف معه بشكلٍ عام. ولقد أخذ على نفسه أن «يستحثّ» وعيه ويدفعه إلى التحرك بشأن ما يعرف سلفاً أنه خطأ، وذلك من أجل عزل حفنة المتصلبين.

ويحاول هذا الكتاب الوجيز استخلاص جوهر مذهب غاندي في المقاومة اللاعنفية.

وبالرغم من أنّ مواعظ غاندي مليئة بالتناقضات الصارخة، ومن أنها تنهل من عقيدة دينية لا يمكن دوماً التوفيق بينها وبين التحليل العقلاني، يمكن مع ذلك استخلاص مذهب مُتسق من السجل الذي خُلفه وراءه.

ولكن عملي هذا ليس مجرد تمرين أكاديمي، ولا هو كذلك حتى في المقام الأول.

فقد استخلص غاندي، بإعماله عقله المتيقظ في تجربة حياتية غنيّة في الخدمة العامة، دروسًا عملية ثمينة عن طبيعة الممارسة السياسية سيكون من قلة الكياسة تجاهلها.

ولقد بدأت قراءة غاندي لأول مرّة قبل بضع سنوات خلت من أجل استلهام استراتيجية لاعنفية لإنهاء الاحتلال الإسرائيلي للأراضي الفلسطينية.

ولكن مجال تطبيق أفكار غاندي ما فتئ يتوسّع كثيرًا حاليًا مع ظهور الربيع العربي وحركات المقاومة اللاعنفية حول العالم.

ويوجد اسم غاندي في كلّ مكان على شفاه من يتحدون نظامًا سياسيًا يقصي الأغلبية الساحقة من الشعب ونظامًا اقتصاديًا يسرق مستقبلها.

وفي مدينتي، مدينة نيويورك، أسرت فكرة العصيان المدني اللاعنفي خيال الشباب وأنعشت أملهم في أن يسقطوا حتى متاريس وال ستريت ذاتها.

ولقد كرس غاندي كلّ حياته كبالغ لتنظيم 99 في المئة المغلوبين على أمرهم في مواجهة 1 في المئة الذين يمثلون أهل الجشع. كان يأمل بداية أن يضع حدًا للاحتلال البريطاني للهند، لكنه نفر أيضًا من فكرة حلول شلة فاسدة من الهنود المحليين محل المحتلين الأجانب.

وسعى غاندي إلى وضع أسس نظام سياسي تنتقل فيه السلطة الحقيقية، وليس -فقط- الاسمية إلى جماهير الهنود وتوزّع فيه الثروة بإنصاف، ولا يبقى فيه اللهاث وراء الثورة هدف الحياة.

ولم يقف اقتناعه عند إمكانية اجتثاث العالم القديم وبناء عالم جديد دون عنف فحسب، بل تعدّاه إلى أنه ما لم يتم ذلك دون عنف، فإن العالم الجديد لن يكاد يختلف عن العالم الذي يحلّ محله.

وثمة جيل جديد يعكف حالياً على تجريب ووضع تصوّرات أساليب حياة جديدة، ويُفكّر ملياً في كيفية إعادة توزيع السلطة والقضاء على الامتيازات. وتقدّم تجربة غاندي في الحياة وتأملاته كنزاً ثرياً يمكن أن يساعد في توجيه هؤلاء الشباب المثاليين، لكن المنضبطين، والشجعان، لكن الحذرين، وهم يخوضون الغمار لإيجاد مستقبل أكثر إشراقاً.



أنا مُمتن لدعم مؤسّسة أونز (Unz)، وعلى التعليقات التي تلقيتها على المسودات الأولى من سمير شوبرا، وأنتوني كوبلي، وميغنا كومر، وساجيف ماهاجان، وكارونا مانتيينا، وآلان نايرن، وعبيد قرشي، وماركو روسير روسي، وفيروز سيدوا، ودوغ تارنوبول. وكالمعتاد، أنا مدين أكثر لناشري، مارن هاكمان-ماهاجان.

نورمان فنكلستاين

الفصل الأول

الصوت الداخلي

ليس من السهل تقديم صورة شاملة أو مُتسقة عن مذهب غاندي في المقاومة اللاعنفية أو ساتياغراها⁽¹⁾.

وكما جاء في المُقدِّمة، تصل أعمال غاندي المُجمَّعة إلى حوالي 100 مُجلدٍ سميك. ولقد قرأت حوالي نصف هذا التراث⁽²⁾، وكذا العديد من المختارات⁽³⁾، والسير الذاتية، والدراسات العلمية. ولذلك، ستكون ملاحظاتي جزئية من ناحية أو

(1) في ما يتعلَّق بأصل ومعنى مصطلح ساتياغراها، انظر: Stanley Wolpert, *Gandhi's Passion: The life and legacy of Mahatma Gandhi* (Oxford: 2001), p. 66.

(2) سأقتبس من *Collected Works of Mahatma Gandhi* التي نشرتها وزارة الإعلام والبتّ، حكومة الهند، يُشار إليه في ما يلي بـ: CW.

(3) سأقتبس من كتاب المهاتما غاندي، *The Essential Writings*، الذي نُشر مع مُقدِّمة وحواشي لجوديث م. براون (Judith M. Brown) (أوكسفورد: 2008). ويُشار إليه في ما يلي بـ: EW. وسأقتبس أيضًا من م.ك. غاندي (M. K. Gandhi, *Non-violent Resistance (Satyagraha)* Mineola, NY: 2001). ويُشار إليه في ما يلي بـ: NR.

ربما ناحيتين. وهي لن تشمل تفكير غاندي برحابته الكاملة. وركزت قراءتي على الفترة 1930-1947، عندما تعرّض مذهب غاندي لأقصى ما تعرّض له من اختبارات. ولكنها كانت أيضاً الفترة التي وصل فيها تفكيره تمام نضجه. ولأن قراءتي غير كاملة، يمكن القول إنني فاتتني تحولات وقطائع حاسمة في فكر غاندي، وبالتالي سأكون قد قدّمت لقطة عن عقل وهو منهمك في العمل وليس صورة مُتحرّكة. ولكن بالرغم من أن غاندي عاش حياة طويلة وغنيّة وخاضعة لتمحيص ذاتي دون كلل، فقد ظلّ راسخاً في معتقداته الأساسية. وقال «كلما أُجبرت على مقارنة ما كتبتّه حتى منذ خمسين سنة خلت مع آخر ما كتبت... لم أجد أي تضارب بين الاثنين»⁽¹⁾.

وقد اعترف غاندي بأخطاء في مواقع مُحدّدة⁽²⁾ وتغيّرات في الأحكام⁽³⁾، لكن ليس هناك «إله أفلت» من التراجع عن رأيه أو تجليات «المراجعات». فبيانه الفلسفي المنهجي الوحيد هو مُجلّد نحيف بادي الخصوصية عنوانه (Hind Swaraj) (حكم البيت الهندي) جمعه بسرعة سنة⁽⁴⁾ 1909. وأعرّب غاندي، عندما أُتيح له النظر في هذا الكتاب، في مناسبات شتى في مراحل متأخرة من حياته، عن رضاه التام عنه⁽⁵⁾.

(1) 203 p. 70, v. 70, CW... لكن في رأي الروائي الفرنسي الشهير رومان رولان (Romain Rolland)، الذي كان أيضاً كاتب سيرة غاندي: «ينتقل عقله عبر تجارب متعاقبة إلى العمل ويتبع خطاً مستقيماً، لكنه لا يتوقّف أبداً، ويخاطر المرء بالوقوع في خطأ إن حاول الحكم عليه انطلاقاً مما قال قبل عشر سنوات، وذلك لأن فكره في تطوّر مستمر» (499 p. 48, v. CW).

(2) 27677-29192, v. 73, CW, pp. 69, v. 73, CW.

(3) 162, v. 82, CW, p. 222, v. 80, CW, pp. 31516-71, v. 71, CW.

(4) سأقتبس من:

M. K. Gandhi, Hind Swaraj and Other Writings, edited by Anthony J. Parel (Cambridge: 1997).

(5) يشار إليه في ما يلي بـ: HS.

81, v. 80, CW, p. 325, v. 70, CW, p. 242, v. 70, CW, pp. 33233-42, v. 42, CW, p. 125.

ولكن حياة وكتابات غاندي تخترقها التناقضات. فقد كان يحب الاستشهاد برالف والدو إيمرسون (Ralph Waldo Emerson)، «الحرص الأبله على الاتساق هو الجنّي الذي يسكن العقول الصغيرة»⁽¹⁾. إنه محنة العقول الصغيرة وهي تحاول أن تجعل من غاندي ذاك النصير المتسق لهذه الفكرة، بما أنه لم يكن يولي كبير أهمية للاتساق: «تَهَم... التناقض لا ينبغي أن تُعار اهتمامًا. ما يجب أن يُعيره خادم الشعب اعتبارًا هو موافقة ضميره ذاته»، لكن غاندي يعود أيضًا ليصرّ على أنه متسق مع ذاته باستمرار: «التناقض لا يعدو أن يكون أمرًا ظاهريًا. يبدو كذلك للعديد من الأصدقاء بسبب استجاباتي لظروف مُتباينة. والتناقض الظاهري قد يكون في الحقيقة مجرد عناد»⁽²⁾.

والواقع أن أفعال غاندي كثيرًا ما أعطت فكرة خاطئة عن كلماته. وحاجج غاندي، دفاعًا عن نفسه، أنه لا سبيل إلى تفادي التناقض في تطبيق نظرية ما: «لا يمكن للاعنفى أن يحيد عما هو عملي»؛ و«لا أحد يستطيع التحرك وفق مبدأ كبير، مثل مبدأ اللاعنف، بشكل كامل»؛ كما أن «اللاعنف الخالص الذي لا تشوبه شائبة مستحيل استحالة مستقيم أوقليديس»⁽³⁾.

p. 319, CW, v. 82, p. 350.

(1) CW, v. 67, p. 284.

(2) CW, v. 42, p. 469, CW, v. 43, p. 307, CW, v. 46, p. 6 ("Charges," "apparent"), CW, v. 47, p. 378.

كتب غاندي في أوضح عباراته وأكثرها صراحة وكذا اتساقًا، البيان التالي:

- يمكن تفسير أي تناقض واضح سواء في حياتي أو في شؤون «أشرم» ليس هناك سوى تناقض ظاهري في عمل الشخص الذي يلف جسده في فصل الشتاء ويتركه عاريًا في الصيف. إنه يخضع للمبدأ نفسه، سواء عندما يغطي جسمه أو عندما يتركه عاريًا. ويمكن تفسير العديد من هذه التناقضات الظاهرية تفسيرًا ملائمًا. وثمة تناقضات أخرى هي تناقضات في الواقع. فهي تعود إلى نقاط ضعفي أو نقاط ضعف «أشرم». وينبغي النظر إليها كنواقص أخلاقية وينبغي بذل كل ما في الوسع للتغلب عليها. لكن لا يمكن التمييز بين ما يمثل تناقضات حقيقية وما لا يعدو أن يكون تناقضات ظاهرية إلا عند دراستها واحدة واحدة. (67-CW, v. 49, pp. 66).

(3) CW, v. 66, p. 438 ("deviate"), CW, v. 74, p. 330 ("entirety"), CW, v. 78, p. 37 ("pure"),

وجنّد غاندي، في بداية مشواره السياسي، فيلق إسعاف لفائدة الجانب البريطاني في حروب البوير والزولو⁽¹⁾. وعرض مرّة أخرى خلال الحرب العالمية الأولى تعبئة فيلق إسعاف لفائدة الجيش البريطاني، ثم جنّد الهنود ليحملوا السلاح ويقاتلوا إلى جانب بريطانيا⁽²⁾.

بل إن أشهر أنصار اللاعنف في العالم وصل لاحقاً حتى إجازة «استنفار الجيش وتعريض حفنة من الرجال لإطلاق النار» لوقف أعمال الشغب الطائفية في ما بين الهنود⁽³⁾. كما أذعن غاندي لتعاون جيش الهند مع الجهود الحربي للحلفاء خلال الحرب العالمية الثانية إذا منحتها بريطانيا استقلالها، ونشر القوات الهندية بعد التقسيم لمنع انفصال كشمير⁽⁴⁾.

وكان غاندي يُصرّ طوال حياته على أن انحيازه الفعلي زمن الحرب في بداية حياته السياسية لم يكن يتناقض مع مذهبه في اللاعنف⁽⁵⁾. لكن تعليقه في هذه النقطة (والكثير غيرها) ليس مقنعاً⁽⁶⁾. وبالرغم من تدرب غاندي على المحاماة، فإنه لم يكن مجادلاً مقنعاً. وعندما كان يسأله ناقد أوتي الدهاء، نادراً ما كان يردّ ردّاً مفحماً، وكثيراً ما كان يختبئ في مضغ كلامه. ولاحظ أحد نقّاده المبكرين محقّقاً «لأعتقد أن حجّتك مُتسقة في المجمل... أو أن شتى

CW, v. 86, p. 315.

(1) حاول غاندي إقناع السلطات البريطانية خلال حرب الزولو بتسليح متطوعي الهنود، لكنها رفضت.

(2) بشأن النقطة الأخيرة، انظر 97. Wolpert, Gandhi's Passion, p. 97.

(3) CW, v. 66, p. 438 ("army"), CW, v. 67, p. 285.

(4) CW, v. 89, pp. 43233-.

(5) CW, v. 42, p. 437, CW, v. 68, p. 269, NR, p. 132:

انظر أيضاً:

Wolpert, Gandhi's Passion, p. 137.

(6) CW, v. 63, pp. 37374-, CW, v. 72, pp. 3031-.

البيانات والآراء التي تُعبّر عنها لها أي ترابط حقيقي مع بعضها البعض»⁽¹⁾. بيد أن غاندي لم يكتفِ بعدم الاعتراف بالفجوة بين أفعاله وأقواله، بل إنه كان يلجأ أيضاً إلى إعلانات يستعمل فيها سلطته عندما تستدعي الظروف تفسيراً. ولتبرير قراره المثير للجدل تعليق مسيرة الملح التي احتج خلالها ملايين الهنود على احتكار البريطانيين للملح من خلال العصيان الضريبي والمقاومة المدنية، أعلن غاندي ببساطة: «لقد وُضع حدُّ لها، لأنه كان يجب فعل ذلك»⁽²⁾.

وعلاوة على ذلك، لم تكن أفعال غاندي وحدها التي تناقض أقواله. فتصريحاته بدورها كثيراً ما كانت تناقض بعضها البعض، وبشكل صارخ في كثير من الأحيان. فقد يشجب حدّ الغثيان وبكلمات فضفاضة العمليات الطبية الحديثة⁽³⁾، لكنه يُؤكّد مع ذلك أن «الغرب نال إعجابي دومًا على ابتكاراته في مجال الجراحة وتقدّمه الشامل في هذا الاتجاه»⁽⁴⁾. وقد ينازع بأن «النية هي المكوّن الأساسي عند النظر في أي تصرّف أخلاقي»، وبموازاة ذلك ينازع بأنه «يجب الحكم على الرجل بأفعاله، لا بما يحرك أفعاله من دوافع»⁽⁵⁾. وقد يدين «سياجًا نباتيًا يرمي إلى منع دخول الأشخاص إلى

(1) Wybergh to Gandhi, (3 May 1910), مستنسخ في 40-HS, pp. 139.

(2) CW, v. 45, pp. 36566-.

(3) HS, pp. 6265-.

(4) CW, v. 44, p. 7.

(5) CW, v. 55, p. 411 (“examination”), CW, v. 89, p. 295 (“prompting”).

التناقض هنا ربما أقلّ جدّة مما يبدو: ما دام «الله وحده يعلم النيات»، حسب غاندي (CW, v. 72, p. 433)، وفي الواقع لا يمكن أن يحكم على رجل إلا بأفعاله. وفي صيغة أخرى، أكد غاندي أنه «إذا كان الدافع والعمل خالصين، فإن الفاعل ليس مسؤولاً عن النتائج المتشعبة التي قد تنجم عنه» (CW, v. 45, p. 230).

الأماكن المُسيّجة»⁽¹⁾ باعتباره نوعًا من أنواع العنف، لكنه في الوقت نفسه ينصح مراسلًا هنديًا استولى جندي بريطاني على مقعده في قاعة سينما بأن عليه أن «يقف قسدًا بطريقة تحجب الرؤية عن الغاصب»⁽²⁾. وقد يعلن في هنيهة أنه حتى في «المثال الكلاسيكي للأخت أو الأم العزلاء المُهدّدة بالاعتداء الجنسي من خسيس شرير»، لا يكون اللجوء إلى العنف مُبررًا⁽³⁾، لكنه في الهنيهة التي تليها «يدافع» عن استعمال العنف «ضد العالم كله إذا وجدت نفسي محشورًا في زاوية لا أستطيع فيها إنقاذ فتاة عديمة الحيلة من الاغتصاب»⁽⁴⁾.

وربما اعترف غاندي خلال الحرب العالمية الثانية أن «تعاطفه يميل بشكلٍ كامل إلى الحلفاء»، لأن «هذه الحرب بصدد التحوّل إلى حرب بين الديمقراطية، كما تطوّرت في الغرب، والشمولية، كما يمثلها هتلر»، ولأن «هناك اختلافًا جوهريًا بين الفاشية وحتى هذه الإمبريالية [البريطانية] التي أناضل ضدها»، وبُعيد الحرب العالمية مباشرة، لأن «انتصار المحور كان سيكون أسوأ كثيرًا. لقد اتّخذ المحور من العنف عقيدة له. أما الحلفاء فلم يفعلوا ذلك. لقد كانوا يتظاهرون على الأقلّ بالسلم والحرّيّة والحقيقة واللاعنف»⁽⁵⁾. لكنه قد يعترف في الوقت نفسه بشكلٍ ما أن «الهتلرية والتشرشلية هما

(1) CW, v. 53, p. 216, CW, v. 54, p. 416, CW, v. 67, p. 284 (“pickets”), CW, v. 68, pp. 457-59.

(2) CW, v. 71, p. 205.

(3) CW, v. 68, pp. 8182- (“classical”), CW, v. 86, pp. 39798-.

(4) CW, v. 71, p. 225 (“world”), CW, v. 75, p. 339.

(5) CW, v. 70, pp. 204 (“sympathies”), 237, CW, v. 75, p. 272, CW, v. 76, pp. 4001- (“diff erence,” “resolving”), CW, v. 80, p. 294 (“creed”).

ودعم غاندي أيضًا الحلفاء لأنهم كانوا حسبما يزعم ضحايا لعدوان المحور ويخوضون حروبًا دفاعية (CW, v. 72, p. 377, 11-71, pp. 10).

في الواقع وجهان لعملة واحدة»، وأنه «يجب عليّ أن أناضل ضد النازية والفاشية تمامًا مثلما أناضل ضد الإمبريالية البريطانية المستعبدة»⁽¹⁾. وقد يمتدح قرار الزعماء الفرنسيين عدم مقاومة العدوان النازي، لأن «قضية الحرية تصبح مسخرة إذا كان الثمن الذي يتعين تسديده هو الدمار الشامل لمن يفترض أن يتمتعوا بالحرية»، لكنه يمكنه أن يؤكد أيضًا أنه «ليس هناك شر يمكن أن ينزل ببلد أكبر من فقدانه لاستقلاله»⁽²⁾، وأن الأمم الخاضعة للاحتلال النازي ينبغي أن تختار الإبادة على التعاون مع المحتلين⁽³⁾.

وبالرغم من تواضعه الذي لا ريب فيه، يبدو أن غاندي كان دومًا يعتقد، مُخطئًا، أنه قد تفوّق على منتقديه الذين أشاروا إلى تناقض من تناقضاته. لكن يجب القول أيضًا إنه لم يتحاشأ أبدًا الاستماع - كما ينبغي - لمنتقدي تصريحاته وسياساته. وعند طرح نزاع فكري أو سياسي، لم يكن يتلاعب بكلماته لإمالة كفته أو يخلق رجل قش.

وإذا كان غاندي أكثر تناقضًا مما يُبدي، فربما ينبغي التذكير أيضًا أنه كان

(1) CW, v. 69, p. 122, CW, v. 72, p. 60, CW, v. 73, pp. 72, 85, 254, CW, v. 74, pp. 17, 27 ("enslaving"), 115, CW, v. 75, pp. 10 ("Churchillism"), 37, 45, 72, 205, CW, v. 84, p. 394.

وفي بيان قاس على نحو خاص يضع الحلفاء مع المحور في خانة واحدة، كتب غاندي: ما هو مجرم الحرب؟ أليست الحرب نفسها جريمة ضد الله والإنسانية، ومن ثم أليس كل من أجازوها وهندسوها وأداروا دفتها مجرمي حرب؟ لا ينحصر مجرمو الحرب في دول المحور وحدها. فروزفتل وتشرفل ليسا أقل شأنًا بين مجرمي الحرب من هتلر وموسوليني. فهتلر كان «خطيئة بريطانيا العظمى». وهتلر ليس إلا ردًا على الإمبريالية البريطانية، وأنا أقول هذا على الرغم من حقيقة أنني أكره مذهب الهتلرية ومعاداة السامية. وقد تلطخت أيدي إنجلترا وأمريكا وروسيا جميعها بدرجة أو بأخرى بالأحمر القاني - وليس فقط ألمانيا واليابان. ولم يعد اليابانيون أن أثبتوا أنهم تلاميذ نجباء للغرب. لقد تعلموا على يد الغرب، ولما رموا أول قوس رموه (CW, v. 23-79, pp. 422).

(2) CW, v. 59, p. 45 ("evil"), CW, v. 72, p. 187 ("mockery").

(3) CW, v. 68, pp. 137205, 41-, CW, v. 69, p. 290, CW, v. 72, p. 230.

أعود إلى هذه النقطة لاحقًا.

يتصور نفسه «في المقام الأول رجلاً حركياً ومصلحاً»، و«مثالياً واقعياً»، و«رجلاً حركياً... يأتي المنطق [بالنسبة إليه] لاحقاً، ولا يسبق الحدث»، و«أنا لست مولوداً للكتابات الأكاديمية. الحركة ميداني»⁽¹⁾. ويحلّ الانسجام والصرامة الفكرية في مرتبة مُتدنية من أولوياته مقارنة بإنجاز الأشياء⁽²⁾. وتبعاً لذلك، كان يحث مخاطبيه الذين اكتشفوا «تناقضات، مزعومة أو حقيقية» في هذا التصريح أو ذاك من تصريحاته، على أن ينظروا في كلّ تصريح على حدة بناء على «مزياه وأن يباركوا الجهد إن استطاعوا»⁽³⁾.

ومع الإقرار بتأرجحات غاندي، من المفيد أيضاً تكرار القول بأن تكيفه مع الظروف كان يسير يداً في يد مع وفاء نادر للمبدأ. لو كان غاندي مجرد سياسي نفعي كغيره، ما كان لينال تفاني جماهير مستضعفي الهند. «أدعي أنني مثالي واقعي. وأؤمن بالتسويات». ولكن فقط، حسب غاندي، «ما دامت لا تنطوي على التضحية بالمبادئ»⁽⁴⁾. وكان غاندي يعلن أن من هذه المعتقدات الأساسية قول الحقيقة. و«لا يمكن أن تكون هناك مناسبة يجب على المرء أن يكذب فيها. وإذا كانت هناك مثل هذه المناسبة، فسيستتبِع ذلك أن مبدأ تحري الصدق في القول والفعل مبدأ

(1) CW, v. 70, p. 224, CW, v. 73, p. 208 (“essentially”), CW, v. 79, p. 424 (“logic”), CW, v. 83, p. 180 (“academic”), CW, v. 86, p. 200 (“idealist”).

وزاد غاندي عن وعي من نبرة كلماته، المعروفة ببساطتها وسهولة نفاذها، «وعينه على عامة الجمهور، وليس على... المتعلمين» (CW, v. 45, p. 2).

(2) لقد كان أيضاً يُرجح أكثر أن يستسلم لمحاول إذا ما وُوجه ببدء أخلاقي أكثر مما إذا وُوجه بحجة منطقية؛ ويعطي قيمة محدودة إلى العقل في حد ذاته وباعتباره قوة إقناع؛ وكان يعتقد أن «العلة تسير. كقاعدة عامة، على خطى الشعور» (CW, v. 45, p. 244, CW, v. 48, p. 369, CW, v. 90, p. 216).

(3) CW, v. 78, p. 16.

(4) CW, v. 47, p. 253, CW, v. 79, p. 424 (“sacrifice”), CW, v. 85, p. 368.

ناقص. ولا يمكن أن يكون هناك استثناء للمبدأ، وبالتالي لا يمكن أن تكون هناك كفارة عن مجانبة قول الحقيقة عن علم»⁽¹⁾. ولا شك أن غاندي قد سقط، ككل من سواه، في خداع الذات، ولكنه خلافاً لكل الناس تقريباً ربما لم يكذب أبداً عن وعي، مهما بدا هذا القول عاطفياً ومثيراً للشكوك.

ولكن التقلُّبات العديدة لغاندي ليست السبب الوحيد الذي يدفع دفعاً إلى استخلاص مذهب متسق مما عمله في حياته. كما قد يبدو سطحياً ومتقلِّباً ومتغطرساً تماماً. وقد أصدر غاندي أحكاماً شاملة على مواضيع من مثل الاشتراكية، بالرغم من اعترافه «لم أقرأ أي كتب عن الموضوع»⁽²⁾، وفي موضوع الأفلام المتحرِّكة التي قال إنه «لا يحبها»، رغم اعترافه «أني لم أذهب أبداً إلى قاعة سينما»⁽³⁾. وقد يطلق تصريحات نيابة عن «مؤتمر نساء عموم الهند» إلى «أخوات [هن]» البريطانيات ويعلن أمام جمهور نسائي «أعرف جنسكن واحتياجاتكن أكثر مما تعرفن أنفسكن»⁽⁴⁾.

(1) 81-CW, v. 49, pp. 80؛ ولكن قارن مع CW, v. 44, p. 357، حيث يدخل الصفة: «لا يمكننا أن نعيش دائماً في مستوى المثال، وأحياناً يكون علينا في الممارسة العملية التنازل عنه لكي لا نضطر إلى التخلي عنه تماماً». (2) CW, v. 71, p. 257. لكنه يمكن أن يكون أيضاً حذراً في أحكامه السياسية، كما حدث عندما أجاب عن سؤال حول الحكم البلشفي في روسيا، «ربما من المخجل إلى حد ما أن علي الاعتراف لك بأنني لا أعرف حتى الآن ما هي البلشفية بالضبط ببساطة، لأنني لم يُتَح لي الوقت لدراسة دواخل الثورة الروسية» (CW, v. 46, p. 295). وفي وقت لاحق، قرأ غاندي خلال سجنه أثناء الحرب العالمية الثانية بشكل كثيف عن المذهبين الاشتراكي والشيوعي، بما في ذلك «رأس المال، لماركس (335) CW, v. 82, p. 69، CW, v. 78, p. 69). لقد كان أوسع قراءة بكثير مما كان يكشف عنه عادة. فالصورة التي كان يعطيها عن نفسه كمغفل فكري، وإن كان بريئاً، ينبغي أن تؤخذ بتحفظ. وللوقوف على اتساع وعمق قراءاته، انظر 76-CW, v. 49, pp. 77-310، CW, v. 50، ولكن قارن مع CW, v. 50, pp. 62-361، لمعرفة جهل غاندي المعترف به ببعض الكلاسيكيات الغربية. (3) CW, v. 45, p. 7؛ قارن مع CW, v. 88, p. 17، حيث يُعبّر عن ازدياد «دور السينما والمسارح» على الرغم من أنه ذهب إلى «المسرح مرة واحدة فقط، عندما كنت طفلاً صغيراً»، و CW, v. 90, p. 340، حيث ينصح بأنه «لا ينبغي أن يكون هناك مكان للسينما» في الهند المستقلة حديثاً. (4) CW, v. 43, pp. 33638-، CW, v. 74, pp. 114132، 16-، CW, v. 83, p. 333.

وإضافة إلى ذلك، لم يهتم غاندي أبداً بتأليف كتاب منهجي عن ساتياغراها اعتقاداً منه بما يفيد «أن أحيي الفكرة» و«أمارسها في حياتي» يوصل معناها بصورة أفضل⁽¹⁾. وعلى المرء أن يللم مذهب من قطع متناثرة لا تتسم بالتنافر، فحسب، وإنما -أيضاً- بكونها مُحيرة وغامضة.

بيد أن أكثر ما يُحير أن غاندي كان يخلط الأصناف ويكسر المميزات الحاسمة دون مبالاة. وكان يجعل الأمر يبدو كما لو كان يطبق بالطريقة نفسها مذهباً واحداً بسيطاً، في حين كان في الواقع مذهباً ينطوي على اختلافات خفية. فقد كان يوجه نداءه، حسب المناسبة، إلى جماهير مختلفة نوعياً. فقد كان يناضل أحياناً من أجل «إذابة قلب» المسيء الفعلي ليحمله على الاستسلام، وأحياناً كان يناضل لكي «يستحث ضمير» المتفرّج السلبي نحو التحرك. وعلى المنوال نفسه، كان يسعى إلى تحويل جمهوره، حسب السياق، باستخدام تكتيكات مختلفة نوعياً. فقد كان يستخدم أحياناً الإقناع الأخلاقي، وأحياناً قوة الإكراه، وإن كان يمرر كلا التكتيكين تحت عنوان اللاعنف اللطيف نفسه على نحوٍ مخادع.

بيد أن ما يجعل التفسير العقلاني لمذهب غاندي أكثر تفلتا هو أنه مُشربٌ بعقيدة دينية. كان يُردد أن «الإيمان هو ما يُمدُّني»، وأن «الإيمان هو ما يجب أن يمدّ سائر أتباع ساتياغراها»؛ وأن «جذور ساتياغراها توجد في الصلاة». لكن مذهب غاندي لم يُولد من رحم الإيمان وحده. لقد قابله علناً أيضاً بمذهب يقوم على العقل: «الإيمان ليس مسألة من مسائل العقل. إنه ينبعث من الداخل»؛ و«يتخذ تفكيري في هذه الأيام

(1) CW, v. 44, p. 18.

شكل صلاة حصرًا. ولا أستخدم عقلي، بل أنظر في قلبي»⁽¹⁾. وبالرغم من حرص غاندي على تجنيد أتباع ساتياغراها للنضال، فإنه كان يؤكد أن على الشيوعيين وغيرهم من غير المؤمنين ألا يحاولوا الانضمام، لأن «الحب الحقيقي للبشر يستحيل تمامًا، في رأيي، من دون حب الله»⁽²⁾.

وعندما كان غاندي يدخل في حملة عصيان مدني، أو إضراب عن الطعام (صيام)، أو مفاوضات، لم يكن ذلك بعد تقدير مادي لـ «ميزان القوى» -ليس بشكلٍ واعٍ على أية حال- وإنما بدلًا من ذلك بدفع من «رغبة داخلية شديدة»، أو «صوت داخلي»، أو «هبة من الله». وكان يعترف «أنا لا أستهدي بالعقل... وإنما بغريزتي أو بعبارة أخرى بالصوت الداخلي، ولا يعرف المرء أبدًا إلى أين سيقوده ذلك الصوت»؛ و«لا أعتد على عقلي في البت في أي عمل. فبالنسبة لي، مسار العمل القائم على العقل يبقى تحت الفحص رهناً بإقرار الصوت الداخلي»⁽³⁾. وعلى هذا الأساس،

(1) CW, v. 43, p. 321 ("heart"), CW, v. 47, p. 399, CW, v. 73, p. 407 ("sustains"), CW, v. 81, p. 244 ("question"), CW, v. 82, p. 368, CW, v. 83, p. 258 ("root")، ولكن قارن مع CW, v. 86, p. 338.

(2) CW, v. 48, p. 412 ("real"), CW, v. 69, pp. 226-27، ولكن قارن مع CW, v. 78, p. 8, CW, v. 79, p. 39, CW, v. 80, p. 238, CW, v. 86, p. 429.

حيث يُجيز غاندي، «قد تُسمِّي نفسك ملحدًا، ولكن طالما كنت تشعر أنك مماثل للبشر فأنت تُقر بوجود الله من الناحية العملية»، كما يصرح بصورة متناقضة فيما يتعلّق بالشيوعيين، «لا أحب فكرة استبعاد أي شخص بسبب عنوانه»، و«لا أجد صعوبة في العمل جنبًا إلى جنب مع الشيوعيين».

(3) CW, v. 42, p. 422, CW, v. 43, p. 32, CW, v. 45, p. 213 ("guided"), CW, v. 47, p. 292, CW, v. 49, p. 482 ("depend"), CW, v. 51, pp. 70, 114, 222, 341, CW, v. 71, p. 306, CW, v. 73, pp. 91, 156, CW, v. 78, pp. 259, 293.

ولكن قارن مع 17, p. 85, CW, v. 74, p. 279, CW, v. 43, p. 32, CW, حيث يصف غاندي بشكلٍ ما، «لقد كانت تجربتي، فيما يتعلّق بنفسي وآخرين كثيرين، أنه بعد أن يسمع المرء الصوت الداخلي، فإنه يجد الحجج التي تدعّمه»؛ و«لقد قمت بالعديد من أنشطتي بحسن نية أو بشكلٍ حدسي. ولكنها لم تجر على أساس الإلهام وحده؛ وقد حاولت أن أرسّي قناعاتي على أساس علمي سليم عند نشرها»؛ و«أنا نفسي لا أتبع غريزتي ما لم يدعمها العقل... وقبل أن يبدأ الإضراب عن الطعام، كان عقلي قادرًا على دعم غريزتي». وتنبغي الإشارة أيضًا إلى أنه لم يكن غافلًا عن الحقائق السياسية على الأرض عندما كان يدعو الإيمان إلى التحرك، بل على العكس من ذلك (CW, v. 71, p. 338). وبشأن المعنى الذي كان غاندي يوليه لـ «صوته الداخلي»، قارن مع 326, CW, v. 50, p. 326.

ينبغي أن يكون جلياً أن الحركة التي بناها غاندي لا يمكنها إلا أن تكون شمولية: كيف يمكن للمرء أن يحتاج مع «صوت داخلي»؟

وقد نعت غاندي ساتياغراها بـ«العلم»⁽¹⁾، ولم يكن يتصورها نظاماً مغلقاً، وإنما كان يتصورها، بروح علمية، تجربة لا تتوقف في بحث دائم ولا يكتمل أبداً عن الحقيقة، لكن بحثه كان «علماً» غير منقاد للدليل أو للدحض الخارجيين؛ إذ تنبع قوته من «كفاءة قوة لا سبيل لقياسها لذات إلهية لا سبيل إلى إدراك كنهها»⁽²⁾. وإذا لم يؤت أحيمصا (اللاعنف) النتيجة المرجوة، فهذا لا يدل على خلل في العلم، وإنما على لوثة كامنة في العنصر البشري: «أحيمصا ناجعة دوماً. لذلك عندما يبدو أنها أخفقت، يكون الخطأ راجعاً إلى عجز المرید»⁽³⁾. وربما كان غاندي محقاً، لكن يصعب الاهتمام إلى كيفية يمكن بها للمرء أن يثبت خطأه، تماماً كما لا يستطيع المرء أن يردّ على تصريحاته المتعالية أو فلتاته المنزوعة الدم من مثل أن اللاعنف، المدعوم بتدخّل الله، أعتى قوة في العالم، لأنها تصريحات غير قابلة للدحض بالمعنى الحرفي للكلمة»⁽⁴⁾.

(1) CW, v. 51, p. 64.

(2) CW, v. 74, p. 2 ولكن قارن مع CW, v. 83, p. 180, and NR, p. 109 حيث يجعل غاندي المطالب المتواضع لساتياغراها «علماً». ولكن لم تكن «قوانين» التي استمدّها من علمه أقل غموضاً - على سبيل المثال، «قانون المقاومة المدنية [هو] أنه لم تكن هناك أبداً حاجة إلى تطبيقه على الدوام على قضية من القضايا. ففعاليته الأساسية تكمن في كونه يؤمن جبر الضرر في فترة قابلة للقياس، وإن لم يكن بالإمكان التأكد منها سابقاً» (CW, v. 47, p. 252). وعرضاً، ناقض غاندي «قانون» المقاومة المدنية هذا خلال الحرب العالمية الثانية عندما اعترف بأنه قد لا يكون ناجحاً ضد النازيين، وأنه سيكون على أتباع ساتياغراها أن يقبلوا الاستشهاد بشكل جماعي من دون خلاص دينوي (أنظر أدناه).

(3) CW, v. 42, p. 423, CW, v. 61, p. 113, CW, v. 72, p. 230, CW, v. 86, pp. 155, 183, 262, 63-368, CW, v. 89, p. 121 ("votary"), NR, pp. 286-87؛ ولكن قارن مع CW, v. 73, p. 175.

(4) CW, v. 72, p. 307; see CW, v. 62, p. 29 (4) CW, v. 63, p. 262، للاطلاع على تعديده «دون حجج» - لتداعيات وشروط نجاح اللاعنف».

وكان غاندي يمتدح من حيث المبدأ «التفكير المستقل» باعتباره «الجوهر الحقيقي لروح الديموقراطية». لقد صرح «من المؤكّد أنني لا أتمنى، ولا هو مرغوب، أن كلّ مَنْ يقترب مني ينبغي أن يكون مثلي من كلّ وجه. سيعني ذلك التقليد الميكانيكي»؛ و«أنا لا أتمنى أن أجعل الجميع مثلي. تعاليمي أن يكون كلّ واحد صادقًا مع نفسه»؛ و«أنا لا أطلب من أحد أن يتبعني. كلّ واحد ينبغي أن يسير بالصوت المنبعث من داخله... يجب ألاّ تتبع أيًا كان بطريقة عمياء في أي حال من الأحوال»⁽¹⁾.

بيد أن غاندي كان يؤكّد حق الملكية على المقاومة غير العنيفة، لأنه «المرجعية الوحيدة فيما يخص ساتياغراها»، و«أكثر أتباع ساتياغراها خبرة»، و«مؤلف ساتياغراها وفريق أول في حراك ساتياغراها»⁽²⁾. وتمامًا مثلما كان، أو كان يتصوّر نفسه، عارفًا على نحو فريد بأسرار ساتياغراها، لم يكن أحد مخلوًا أن يحتاج معه بشأنها: «أعتقد وأشعر أن (صوت) الله بداخلي هو مَنْ يحركني ويستخدمني أداة له»؛ و«أنا واثق أن الله اتّخذني أداة للتدليل على الطريق الأفضل»⁽³⁾. وبعبارة أبسط، أن تشكّ في غاندي يعني أن تشكّ في الله!.

وإذا كان للمرء أن يتحدّى حكم غاندي، فلا يمكن أن يكون ذلك إلاّ لأنّ المتشكك له «معرفة سطحية» بساتياغراها، وهو فوق ذلك شخص تتعذر مساعدته، «لأنّ هذه الفلسفة لا يمكن أن تُدرس من الكتب»⁽⁴⁾.

(1) CW, v. 45, p. 127 (“independent,” “essence”), CW, v. 49, p. 38 (“certainly”), CW, v. 80, p. 306 (“everybody”), CW, v. 88, p. 160 (“blindly”).

(2) CW, v. 71, pp. 1034- (“authority,” “experienced”), CW, v. 73, p. 31 (“author”).

(3) CW, v. 47, p. 372 (“within”), CW, v. 73, p. 53 (“confi dent”).

(4) CW, v. 71, pp. 1034- (“authority,” “experienced”), CW, v. 48, p. 156 (“superfi cial,” “books”), CW, v. 88, p. 1:

وإذا كان غاندي يعرف أفضل، فبسبب «ما اكتسبه بناءً على تجربة أربعين سنة»⁽¹⁾ التي لا تضاهى.

ويمكن للمرء أن يسير خلف غاندي أو يختار عدم المسير. ولكن لا يمكن للمرء أن يُقرر في مسار عملٍ إلى جانبه دون رضاه. عندها سيعلن، «هناك قاعدة هي أنه لا يجوز لأحد أن يدخل إضرابًا عن الطعام دون إذني»؛ و«إذا كنا نريد العمل بشكلٍ غير عنيف، فينبغي عندها قبول القيود التي وضعتها»؛ و«أيما أحد لإضرابه عن الطعام صلةً بساتياغراها فينبغي له أن يطلب إذني ويحصل عليه كتابةً قبل مباشرته. وإذا اتُّبعت هذه النصيحة، فلا حاجة لقواعد مُؤطّرة، بأي درجة من الدرجات، ما دمتُ حياً»؛ و«للإضراب عن الطعام من أجل قضية عامة أيضاً شاسترا [المعرفة المتخصصة أو التقنية]، وأنا الوحيد المتمكن منها بصورة كافية»⁽²⁾. وفي مناسبات أخرى، نصح غاندي حواربيه بعدم الخوف من التفكير والتحرُّك بأنفسهم، ولكن فقط لأنه سيكون في الجوار لتصحيح أخطائهم»⁽³⁾.

ولقد تحاشى غاندي جميع «المذاهب» والطرق الطائفية (isms)، بما فيها «الغاندية». وأعلن «يطربني أن أسمع كلمات: «تسقط الطريقة

ولكن قارن مع CW, v. 53, p. 216, CW, v. 88, p. 325، حيث يعترف غاندي، «أنا لا أدعي أي احتكار لمعرفة عقيدة ساتياغراها، إذ هي مفتوحة لأي شخص ليعطيها المعنى الذي يريده، ويضع قواعد أيضاً وفقاً لما يحبه:» و«ليس هناك ادعاء، مع ذلك، بأن جميع قوانين ساتياغراها وقد وُضعتُ سلفاً. كما لا أستطيع القول إنني أنا نفسي أعرف كل القوانين».

(1) CW, v. 78, p. 69.

(2) CW, v. 43, p. 381, CW, v. 44, p. 47, CW, v. 51, pp. 53, 64, CW, v.81, p. 212 (“rule”), CW, v. 82, pp. 14142- (“restrictions”), CW, v. 83, p. 401 (“embarking”), CW, v. 88, p. 168 (“shastra”), CW, v. 90, pp. 377, 461.

(3) CW, v. 78, p. 234.

الغاندية». و«كل مذهب (ism) يستحق التحطيم»⁽¹⁾. لكن البديل الذي اقترحه كثيرًا ما أعطى شعورًا بأنه مستبد ذو نزوات. فقد كان لغاندي خطٌ حزبي لا يقف عند الإمساك عن الجنس والنباتية، وإنما أيضًا عن «النكات الفارغة» (يعارضها)، و«المزاح البريء» (ربما)، والساعات اليدوية (يعارضها)، والملابس الداخلية (يعارضها)، والمحادثات أثناء العمل (يعارضها)، وأقلام الرصاص وأقلام الحبر (يعارضها)⁽²⁾. وكان يبدو أحيانًا مثل ستالين وهو يتحدث في اللسنيات، وإن كان من يحددون عنه قد يطردون في حالة غاندي من معبده، لكن لا يُرخلون إلى الغولاغ⁽³⁾.

وخلاصة القول، إن مذهب غاندي لا ينفصل عن شخصه وشخصيته، لكنه كان أقلّ تعسُّفًا وأكثر اتساقًا بكثير مما كان يبدي في بعض الأحيان.

ويجب التذكُّر أيضًا، في أي عرض لساتياغراها، أن غاندي لم يتصوَّر المقاومة اللاعنفية على أنها صميم مذهبه. فقد وضع ساتياغراها في مصفوفة الأنشطة اليومية، ما كان يسميه «البرنامج البناء» الذي يُشكِّل «أساس العصيان المدني». وتتضمن معالمة حذف «وصمة» النبذ من الهندوسية، وتعزيز الوحدة الهندوسية الإسلامية، وتشجيع استخدام عجلة الغزل (تُشاركًا) والقماش المغزول يدويًا (خادي) على نطاق جماهيري.

(1) CW, v. 71, p. 258 (“destroyed”), CW, v. 79, pp. 187, 382, CW, v. 89, p. 396.

(2) CW, v. 44, p. 170 (pencil), CW, v. 49, pp. 167 (conversing), 200 (conversing), CW, v. 73, p. 444 (“jokes,” “pleasantries”), CW, v. 79, pp. 68 (wristwatches), 292 (underwear), CW, v. 81, p. 192 (pencil), CW, v. 90, p. 354 (he favored a reed pen).

(3) تنطوي جوانح غاندي على بعض من «الأخ الأكبر» أيضًا. فقد وافق على أن ينبغي لأعضاء معبده أن يحتفظوا بـ«مذكرات شخصية بأعمالهم وخواطرهم وأفكارهم...، ويضعوها أمامـ[ه] للاطلاع حتى يتمكن من معرفة عقل وعمل كل واحد من منتسبي معبده، ويقدم الاقتراحات اللازمة» (CW, v. 73, 84–CW, v. 42, pp. 283). (CW, v. 79, p. 380, 92–p. 416n1, CW, v. 74, pp. 291).

وعلى هذا الأساس العملي، كان غاندي يؤمن أن الهنود يستطيعون بناء أواصر حبّ لا محدود لا سبيل إلى كسرهما تتجاوز الطائفة المغلقة والطبقة. وتنبأ غاندي أيضًا أنه ما إن ينضم الهنود إلى هذا البرنامج البناء حتى تنضج ثمرة الحكم الذاتي (بورنا سواراج) وتستقر في حجر الهند، وستنتفي الحاجة إلى المواجهة السياسية مع بريطانيا العظمى، وفي الوقت نفسه سيُضمن المستقبل اللاعنفي للهند: «إذا تعلمنا أن يحب أحدنا الآخر، وإذا ردمت الهوة بين الهندوسي والمسلم، وبين ذي الطائفة المغلقة ومن لا طائفة له، وبين الغني والفقير، فلن تجرؤ حفنة من الإنجليز على الاستمرار في حكمنا»⁽¹⁾.

وخلاصة القول، يجب التسليم بأنه من شبه اليقيني أن غاندي كان سيسائل هدي من كتابة هذا الكتاب. لقد كان يعتقد اعتقادًا راسخًا أنه لا يمكن فصل جانب الحقيقة في ساتياغراها من جوهرها الروحي: «يستحيل نقل شيء هو روح في جوهره عن طريق العقل»⁽²⁾.

ولكنني مقتنع مع ذلك أن لغاندي أشياء مهمة ليقولها بشأن موضوع المقاومة اللاعنفية، يمكن أن يفيد منها كثيرًا حتى أكثر العلمانيين تصميمًا، وأنه يمكن الوصول إلى محتوى مذهبه عن طريق العقل وجعله متاحًا للعقل المنطقي. والأمر للقارئ ليقرر ما إذا كنت على حق.

(1) CW, v. 43, p. 32, CW, v. 45, p. 135, CW, v. 66, p. 105, CW, v. 68, p. 59 ("handful"), CW, v. 72, pp. 378-81, 450, CW, v. 73, pp. 388, 427, CW, v. 75, pp. 137, 146-66, CW, v. 78, pp. 64, 78, 218-19, CW, v. 81, pp. 87-89, EW, p. 15.

لمعرفة المعنى الذي كان غاندي يعطيه لبورنا سواراج، والتميز الذي أقامه بينه وبين «الاستقلال»، قارن مع CW, v. 45, pp. 263-64.

(2) CW, v. 67, p. 123.



غاندي يجمع الملح (جنوب ولاية غوجارات 1930)

الفصل الثاني

وسادة الموت

ما هي ساتياغراها؟

على «مريدي» المقاومة المدنية اللاعنفية، وفقاً لغاندي، تطهير أنفسهم من جميع الدوافع العدوانية. و«يجب ألا يكونوا عنيفين في الفكر أو الكلمة أو الفعل». وفي الواقع، يجب أن يكونوا «غير قادرين على الشعور بالغضب أو تنطوي عليه جوانحهم»⁽¹⁾.

بيد أن جوهر عقيدة غاندي لا يتمثل في قول «لا» بصورة سلبية، وإنما في مبدأ الرفض الإيجابي «الفعال»، والقائم على «الحب الخالص والإحساس بالآخر»، ينبع بدوره من «الإيمان بالخير المتأصل في طبيعة البشر»،

(1) CW, v. 67, p. 437 (“thought”), CW, v. 68, p. 45 (“incapable”).

للإطلاع على مفهوم غاندي المتمدّد لللاعنف، وكذا الاستثناءات العملية التي يدخلها عليه، انظر. CW, v. 50, pp. 8-205.

والاعتقاد بأن «ما هو خير لك هو أيضًا خير للكون بأكمله. فجميع البشر سواء من حيث الجوهر»⁽¹⁾. فإذا كان شخص واحد فقط قادرًا على الحب والخير بشكل يتجاوز كل الشكوك، فإننا إذن جميعًا كذلك.

صحيح أن تاريخ البشر يبدو في جوهره مليئًا بالعنّف. لكن غاندي ينازع بأن هذا خدعة بصرية عزّزها الكتبة والعلماء الذين يراعون، بحكم مهنتهم، استثناءات القاعدة: «التاريخ حقًا سجل لكل اختلال في العمل المنتظم لقوة الحب أو الروح»⁽²⁾.

ويعلن غاندي أن «قانون الحب... يحكم البشر». ولو كان الأمر غير ذلك، لما بقينا هنا: «استمرار بقاء البشر يظهر أن قوة الوثام أقوى من قوة التشّيت، وقوة الجذب المركزي أكبر من قوة الطرد المركزي»؛ و«لو أن العنف، أي الكراهية، حكمنّا، لكنّا انقرضنا منذ زمن طويل»؛ و«لو كان المجموع الكلي لأنشطة العالم تخريبيًا، لكان انتهى منذ زمن بعيد»⁽³⁾.

وتمامًا كما تتدبر «الأسر أو حتى العشائر» حلّ النزاعات بطريقة غير عنفية من خلال قدرات الحب الجامعة، فلكذلك تستطيع «البشرية»، وهي «أسرة كبيرة واحدة»⁽⁴⁾. ولتوضيح قدرة الحب في التغلب على الاستبداد العنيف، كثيرًا ما كان غاندي يُشير إلى التحوّل في علاقاته

(1) CW, v. 68, pp. 29 (“universe”), 189 (“unadulterated”), CW, v. 69, p. 70 (“goodness”). لم يوسع غاندي نطاق مذهبه اللاعنفي ليشمل «الأجناس دون البشرية»، على أسس عملية مفادها أن مذهبه ليس برنامجًا دينيًا، وإنما هو برنامج سياسي مُصمّم لتحويل قاعدة واسعة، وإن كان هو نفسه «لم يكن يقتل الحشرات أو العقارب أو حتى الثعابين. ولا ينبغي في أي ظرف من الظروف تناول اللحم» (CW, v. 61, p. 95). (CW, v. 73, p. 385, 55-CW, v. 72, pp. 454).

(2) HS, p. 90.

(3) CW, v. 48, p. 224 (“persists”), CW, v. 50, p. 207, CW, v. 71, p. 408 (“extinct”), CW, v. 90, p. 195 (“destructive”).

(4) CW, v. 67, pp. 43637- (“clans,” “humankind,” “family”), EW, pp. 32426-, NR, p. 179.

الزوجية الخاصة: بالرغم من أنه «كان من عادتي أن أجعل حياتها جحيماً بالمعنى الحرفي... فقد تغلبت عليَّ بساطتها الساذجة تمامًا» في نهاية المطاف⁽¹⁾.

ويمكن لإيمان غاندي بالخير المتأصل في البشر أن يمطط الساذجة إلى أقصى حدودها. فقد كتب في عام 1940 رسالة تبدأ «صديقي العزيز» إلى هتلر يؤكد فيها ألا «تعتقد أنك الوحش الذي يصفه خصومك»، بالرغم من الاعتراف بأن «العديد من أفعالك هي وحشية ولا تليق بالكرامة الإنسانية»⁽²⁾.

وتتحاشى ساتياغراها العنف بما أن المحبة جوهرها. كما تتحاشى أن توقع بالآخرين الأشكال غير المباشرة وغير المادية الشبيهة بالإكراه، مثل الخوف والكذب والإحراج⁽³⁾. وإضافة إلى ذلك، كان غاندي يستنكر الاعتداء على الممتلكات أو حتى تسور الجدران التي تضم ملكية خاصة باعتباره «عنفًا خالصًا»⁽⁴⁾.

وخلافًا للعنف الذي «يوصل إلى الإصلاحات بالوسائل الخارجية»، تعتمد ساتياغراها، حسب غاندي، حصرًا على الوسيلة الداخلية المتمثلة في «تطهير الذات» الذي يأتي من المعاناة الذاتية: «كلما كانت المعاناة أكثر

(1) CW, v. 68, pp. 46 ("hell"), 204.

(2) CW, v. 73, pp. 253-55. قمع البريطانيون طبعًا ما ظلَّ غاندي يعتقد أنه «رسالة جيدة» (CW, v. 73, p. 288).

(3) CW, v. 69, p. 69, CW, v. 72, p. 456, CW, v. 75, p. 60, CW, v. 78, p. 225, EW, p. 335, NR, pp. 32, 72, 149.

بيد أن غاندي بدا وكأنه يعتبر «تعيب» المسيء أمرًا مشروعًا (EW, pp. 206, 336, CW, v. 83, p. 268).

(4) CW, v. 71, p. 403, NR, pp. 182, 18586-.

براءة ونقاء كان أثرها أقوى»⁽¹⁾. والهدف من هذه التضحية بالذات هو إيقاظ وعي المسيئين من غفوته من أجل «تحويلهم، وليس إكراههم»، ووعي المتفرجين المتعاطفين من أجل دفعهم نحو التحرك⁽²⁾.

وكما زاد عدد أتباع ساتياغراها المستعدين للتضحية بأنفسهم، وكما كانت دوافعهم نقية، كان نصرهم أسرع، كما صرح غاندي في مسيرة الملح: «ما لم يمت الآلاف، لن يُضمن... سواراج [الاستقلال]. وكما كان الرجال الذين يضحون بأنفسهم من أجل هذه القضية أظهر، حصلنا على الاستقلال بصورة أسرع وكان عدد من يُضحى بهم أقلّ؛ و«لا شيء سيكون أفضل من هلاك هذه العصابة من أتباع ساتياغراها»⁽³⁾. فالتضحية القصوى لتابع ساتياغراها، حسب غاندي، لا تقف عند وخز ضمير الجمهور وإنما أيضاً «تطهر من يخلفونهم وراءهم وتوقظ روح الخدمة بصورة أقوى»⁽⁴⁾. وفي رواية أخرى، أشار إلى القدرات التغييرية ليس للمعاناة الذاتية في حدّ ذاتها، وإنما «استنقاع الحبّ والشفقة نحو المسيء»⁽⁵⁾.

وانتقد غاندي اللجوء إلى العنف، سواء كان ذلك لأسباب شخصية أو سياسية، وأخلاقية أو نفعية. فهو يفسد الشخص ويتدنّى به إلى مستوى البهيمة: «ما يُميّز الإنسان عن جميع ما سواه من الحيوانات هو قدرته على أن يكون غير عنيف»⁽⁶⁾، لكنه يلوّث أيضاً مقصد ممارسة سياسية

(1) CW, v. 69, p. 73 (“potent”), HS, p. 146.

(2) CW, v. 69, p. 69.

(3) CW, v. 43, pp. 93, 338.

(4) CW, v. 43, p. 339.

(5) CW, v. 71, p. 225.

(6) CW, v. 66, p. 421, EW, p. 56 (“distinguishes”).

متنورة. فهو يُشير بابتسامة حافلة بالذكريات إلى أن الوسائل والغايات مترابطة بطريقة متشابكة: «يمكن تشبيه الوسائل ببذرة، والغاية بشجرة». ونتيجة لذلك، مهما كانت القضية عادلة، سيضع اللجوء إلى العنف كسلاح سياسي «الأقوياء والجبارين» دائماً وحتماً في قمة الهرم، في حين يبقى «الأعمى والمُقعد والمشوه» محروماً: «العنف قد يُحطّم حاكماً سيئاً أو أكثر، لكن... سيقفز آخرون ليحلوا محلهم»⁽¹⁾.

وزعم غاندي كذلك أن أي نصر يُحرز عن طريق العنف إلى زوال: «أبما رجل يذعن للتهديد أو للإكراه المادي يستاء من ذلك ولا ينتظر إلا فرصة مناسبة للعودة إلى أساليبه الأصلية ويلجأ إلى أعمال الانتقام عندما يكون قادراً على فرضها»⁽²⁾.

واللجوء إلى الوسائل العنيفة يقصي من المشاركة السياسية أيضاً من لا رغبة أو لا قدرة لهم على استخدامه بنجاح، لكن لا يمكن كسب المعركة من دونهم:

هل تعتقد أن جميع النساء والأطفال الذين جلولوا أنفسهم
بالمجد خلال آخر حملة [مسيرة الملح] كانوا سيفعلون
ذلك لو كنا سلطنا سبيل العنف؟ هل كانوا سيكونون هنا
اليوم؟ هل كانت نساؤنا، المعروفات بأنهن الأكثر وداعة في
الأرض، هل كانت نساء مثل غانغابيهن التي صمدت أمام
ضربات العصي (lathi) حتى تخضب الساري الأبيض

(1) CW, v. 43, p. 133, CW, v. 45, p. 360, CW, v. 59, p. 42 ("pop"), CW, v. 72, pp. 136, 217 ("blind"), HS, pp. 77-78 (esp. footnotes 151, 152), 81 ("seed").

(2) CW, v. 45, p. 249.

الذي كانت ترتديه بالدم، سيقمن بالخدمة الفريدة من نوعها التي قمن بها لو كان في صفوفنا عنف؟ فباسم الله على شفاههن، قذفت وأخواتها تحديهن في وجه المضطهدين، دون غضب في قلوبهن. وأطفالنا - جيش القروء. كيف كان يمكنك تجنيد هؤلاء الأبرياء، الذين تركوا لعبهم وطائراتهم الورقية ومكسراتهم وانضموا جنودًا للاستقلال- كيف كان يمكنك تجنيدهم في صراع عنيف؟ كان بإمكاننا أن نُجنِّد ملايين الرجال والنساء والأطفال، لأننا تعهدنا باللاعنف⁽¹⁾.

وفي مناسبات أخرى، كان غاندي يُحاجج بطريقة عملية بأن العنف ربما كان خيارًا قابلاً للتطبيق في أماكن أخرى، إلا أن «الإرهاب أسوأ شيء على الإطلاق بالنسبة للهند بطريقة خاصّة، لأن الهند تربة غريبة ليزدهر الإرهاب فيها»⁽²⁾.

ويرى غاندي أنه حتى، أو تحديداً، في وجه العدوان القاسي للمحور خلال الحرب العالمية الثانية، كان يجب تحاشي اللجوء إلى القوة المسلحة. ولو كان الحلفاء نجحوا في إلحاق هزيمة عسكرية بالمحور، فما كان ذلك ممكناً إلا بأن يصبحوا «أقوى منه، وبالتالي أسوأ وأقسى»؛ و«هذا لا يعني خلاصاً من النازية»، وإنما «نازية أعلى»⁽³⁾. فالمنتصر سينتهي به الأمر إلى أن يشبهه، وسيكون نتيجة لذلك في الواقع، المنهزم، في حين «أن مثل

(1) CW, v. 45, p. 349.

(2) CW, v. 46, pp. 1-3, 29-31, CW, v. 48, p. 338 (“worst”).

(3) CW, v 72, pp. 214 (“deliverance”), 229, CW, v. 73, pp. 26-27 (“superior”), 324, CW, v. 75, p. 441 (“stronger”).

هذا الانتصار يعني وجوبًا الاستعداد مرّة أخرى لحرب أكثر وحشية من هذه الحرب، كما أثبتت الحرب الحالية أنها أكثر وحشية من الحرب الأخيرة⁽¹⁾.

ويبدو تشخيص غاندي ونذيره ناقصًا من عدّة وجوه. فبالرغم من ارتكاب دول الحلفاء للعديد من الفظاعات، لم تخرج من الحرب العالمية الثانية وهي تحاكي، بل تتجاوز، ألمانيا النازية في وحشيتها. ومع ذلك، لم يبدُ غاندي نادمًا على هذه النقطة حتى بعد نهاية الحرب العالمية الثانية: «لقد خاضت الأمم المتحدة الحرب ضد هتلر بأسلحته وانتهى بها الأمر إلى تجاوزه في هتلريته»؛ و«ما حدث في أوروبا هو أن الهتلرية لم تحطمها إلا هتلرية أعلى منها»؛ و«بينما سحقت ما يُسمى قوات العدو، لم تظفر قوات الحلفاء إلا بنصر فارغ. وعدا التدمير الطائش للرؤوس البشرية، فقد نجحوا -الحلفاء وأعدائهم- في استنزاف العالم من مواده الغذائية ونسيجه. فقد بلغ الأولون درجة من التجرد من الإنسانية إلى درجة أن يأملوا دون جدوى في تحويل الأعداء إلى عبيد. لقد كان السؤال هو: على من نشفق أكثر؛ الحلفاء أم أعدائهم؟»⁽²⁾.

وإضافة إلى ذلك، افترض غاندي أن المقاومة غير العنيفة لا يمكن أن تؤدي إلى نتائج أقلّ من المقاومة العنيفة. وقال «إما أن يصل معك العدو إلى تفاهم، وعندها تكسب من دون دم... أو يقضي العدو عليك. والحلّ الأخير ليس أسوأ في كلّ الأحوال مما تجلبه حرب عنيفة»⁽³⁾. وتجاهل

(1) CW, v. 72, p. 214. قبيل نهاية الحرب العالمية الثانية، بدأ أن غاندي يلفظ هذا التكهن بالتحذير من أنه إذا لم تحرّر الهند فإن انتصار الحلفاء سيؤدي حتمًا إلى فظائع في المستقبل (32-131 pp, CW, v. 79).

(2) CW, v. 86, pp. 116 ("out-Hitlering"), 247-48 ("super-Hitlerism"), 436 ("crushed").

(3) CW, v. 75, p. 441. انظر. هجوم المغتصب، انظر. CW, v. 68، للاطلاع على صيغة أخرى لهذه الحجة في مثال هجوم المغتصب، انظر.

غاندي عمداً الإمكانية الثالثة بأن المقاومة العنيفة يمكن أن تلحق الهزيمة بالنازيين دون أن يُباد المرء، وإن كان ذلك بثمنٍ بشريٍّ فادح، وهو ما حصل بطبيعة الحال. وتزداد صعوبة دحض تأكيد غاندي بأنه، ما إن تقلد قضية ما أساليب النازية «فلا يمكن اعتبارها قضية عادلة»⁽¹⁾، إلا لاستحضار الفوارق الضيقة والمتبلدة أخلاقياً بين أوشويتز وهيروشيما. لكن بقدر ما كان غاندي يستنكر العنف، لم يكن يعارضه دون تحفظ⁽²⁾. بداية، لم يكن يصنف عنفاً المقاومة بالقوة للأوضاع المستحيلة؛ (امرأة تذود مغتصباً بيديها العاريتين، ورجل أعزل يقاوم التعذيب على يد عصابة، وقوات الدفاع الذاتي البولندية في مواجهة العدوان النازي). ففي تقديره، هذا اللجوء إلى القوة رمزي وغريزي إلى حد كبير، قريب من «مقاومة فأر لقط». وفي مثال ضحية الاغتصاب، ما تقوم به من «صفع وخذش» يظهر «التصميم» على «بذل... الجسد والروح، لكن... ألا تتحول إلى رعيدة... هو عمل غير عنيف في حد ذاته. فليست لها القوة للتسبب في الأذى»؛ و«الصفعة ترتفع بنفس المرء، وتبدد خوفه، وفوق كل ذلك تمنحه قوة الإقبال على الموت»⁽³⁾.

وعلاوة على ذلك، كان غاندي يقبل أن تُقيد تصرفات الأفراد القواعد

pp. 81-82.

(1) CW, v. 72, p. 229.

(2) لن أنظر هنا إلا في مقارنة غاندي المغايرة للعنف ضد بشر آخرين. وللاطلاع على معارضة غاندي للحرمة التي تسبغها الجاينية (Jainism) على جميع أشكال الحياة غير البشرية، لأنه «يستحيل في الحياة تجنّب العنف تماماً»، قارن مع 391-92، 230-32، CW, v. 84.

(3) (3) CW, v. 51, pp. 18-19, 24-25 (في هذا المقطع الأخير، يدخل غاندي محاذير إضافية لهذه المقاومة لكي تكون لاعنفية حقاً، «لا ينبغي أن يكون هدف المرء إلحاق الألم، ولا ينبغي أن يكون الألم هو النتيجة»). CW, v. 72, pp. 387-88, 434, CW, v. 74, p. 368, CW, v. 89, p. 481 CW, v. 72, pp. 387-88, 434, CW, v. 72, pp. 387-88, 434, CW, v. 74, p. 368, CW, v. 89, p. 481.

الأخلاقية-القانونية السائدة فقط إلى حين تحويل الآخرين إلى معتقداته. وبالتالي، بالرغم من رفضه للعنف شخصياً، فإنه كان يعترف بمشروعية اللجوء إليه في قضية صالحة: «الدفاع عن النفس حق أي كان بحكم المولد»⁽¹⁾.

وفي مواجهة الشتيمة الشخصية و«إذا شعرت بالإهانة»، يقول غاندي، وهو أشبه في ذلك بمالكولم إيكس منه بمارتن لوثر كينغ، «سيكون من المُبرّر أن تصفع المُتسلّط عليك في وجهه أو تتخذ أي إجراء قد تراه ضرورياً دفاعاً عن احترامك لنفسك»⁽²⁾. وبالرغم «من عدم الدفاع عن تجاوزات العرب» خلال الثورة العربيّة للفترة 1936-1939 في فلسطين، وبالرغم من «تمني أن يكونوا اختاروا طريق اللاعنف لمقاومة ما كانوا يعتبرونه محقين اعتداء لا مُبرّر له على بلدهم»، كان غاندي يعتبر مع ذلك أنه «وفقاً لقوانين الحق والباطل المقبولة، لا يمكن قول أي شيء ضد المقاومة العربيّة في مواجهة الأوضاع القاهرة»⁽³⁾.

(1) CW, v. 68, p. 57. بيد أن غاندي يرى أنه ما إن يتبيّن المرء عقيدة اللاعنف، فإنه يتعهّد بنبذ خيار الانتقام العنيف (75) CW, v. 74, pp. 64، ولكن قارن مع 98-297 CW, v. 74، الذي يبدو مناقضاً لهذا).

(2) CW, v. 71, pp. 224-25.

(3) CW, v. 68, pp. 137-38 (“canons”).

ودافع غاندي، على المنوال نفسه، عن المقاومة الصينية المسلحة للعدوان الياباني (203) CW, v. 68, p. 203.

وعلى هذا المنوال، بالرغم من أن غاندي يعارض شخصياً «معاقبة» مخالفين القانون، لأنها نوع من العنف، فإنه مع ذلك يقبلها في الممارسة العملية، لأن «الحكومات التي تؤدي وظيفتها اليوم تقوم على نظرية العقوبة». بل إنه بدأ موافقاً على إطلاق النار على المدانين بالخيانة، لأن «الخونة يرمون بالرصاصة في كل مكان من العالم كقاعدة»⁽¹⁾.

لكن غاندي لم يكتفِ بالتلطيف من العنف لاعتبارات ظرفية⁽²⁾. كما دافع بشكلٍ فاعل عنه إذا كانت الخيارات الوحيدة الأخرى، في مواجهة الظلم، هي الاستسلام أو الانسحاب الذليل. وكان غاندي يكره «الخنوع الأخرس»⁽³⁾ أكثر من العنف، والأكثر إيغالاً في الذنب في نظره هو إلباس الاستسلام قناع المقاومة اللاعنفية. فإذا كان المرء غير قادر على مقاومة الإذلال مقاومة لاعنفية، فإن المسار المشرف الوحيد عندها هو المقاومة العنيفة، بينما الفرار أمر مخزٍ تماماً.

ولم يكن غاندي يصنّف العنف على أنه أسوأ الإخفاقات الشخصية وأفطع «نواقص» الهنود، وإنما الجبن والتخنث، في حين كان يمتدح قيمتي الشجاعة والرجولة: «اللاعنف أعظم الفضائل، والجبن أرذل

(1) CW, v. 87, p. 134 (“punishment”), CW, v. 89, pp. 242–43 (“traitors”).

(2) يستحق الملاحظة أيضاً موقفه غير المنطوي على أحكام من حين لآخر. ولذا أجب على سائل على النحو التالي: إذا كان اللاعنف لا يروق لقلبك، مثل كثيرين آخرين، فعليك أن تطرحه جانباً. لا شك أنني لا أخطئك من أجل ذلك، وإذا فعل آخرون، فعليك ألا تهتم. والمبدأ هو: «ينبغي أتباع ما قاله الريشيون [الشعراء- الحكماء] ومارسه الحكماء ونداءات قلب المرء ووضعه موضع التنفيذ». وقد يُطرح سؤال بشأن ما على المرء فعله عندما يكون الشيء الذي ينادي قلبه متعارضاً مع ما قاله الريشيون ومارسه الحكماء. والجواب هو أنه يمكن للفرد، في مثل هذه الحالة، أتباع ميوله على مسؤوليته الخاصة. وتم إجراء العديد من الإصلاحات والاكتشافات الجديدة بهذه الطريقة. وقد دعم شنكراتشاريا مؤسسه النبذ، ولكن عقولنا وقلوبنا كلاهما ينظران إليه كوصمة عار على الهندوسية. ونحن لا نهتم إذا اعتبر الآخرون عقيدتنا خاطئة. (CW, v. 85, p. 53; قارن مع CW, v. 46, p. 92).

(3) CW, v. 66, p. 450.

الردائل»؛ و«الأمر الجوهري الذي يتعيَّن أن يوضع في الاعتبار هو أنه لا ينبغي للناس أن يكونوا جبناً أو عاجزين، في أي ظرفٍ من الظروف»؛ و«ليس من الرجولة الفرار من الخطر»⁽¹⁾. وعرّف غاندي «هدف نضال ساتياغراها» الذي قاد تحرُّكه في جنوب إفريقيا تعريفاً موجزاً بأنه «بث روح الرجولة في الجبناء»⁽²⁾.

ومن سخرية القدر أن المناسبات النادرة التي استخدم فيها غاندي لغة عنيفة، لم يوجهها ضد من كانوا يستخدمون العنف، وإنما ضد من يخافونه: «الجبين عجز أسوأ من العنف». الجبان يريد الانتقام، ولكن بما أنه يخشى الموت، فإنه ينظر إلى الآخرين، ربما حكومة ذلك الوقت، للقيام بما يقتضيه الدفاع عنه. الجبان أقلّ من إنسان. إنه لا يستحق أن يكون عضواً في مجتمع الرجال والنساء»؛ و«[مَنْ] لا يزالون يتطلعون إلى الشرطة والجيش طلباً للمساعدة... سيظلّون عبيداً إلى الأبد. ومَنْ يفضلون الأمن على الحرّيّة لا حق لهم في العيش»⁽³⁾. فمن يرفض إهراق الدم خوفاً يوجد فعلياً دون من يهرقه سيالاً في السُّلم الأخلاقي لغاندي. وبالفعل، يُشكّل الجبن في حسابه الأخلاقي أقصى مظاهر العنف: «من

(1) CW, v. 42, p. 73 ("virtue"), CW, v. 74, pp. 75 ("impotent"), 83 ("unmanly"), CW, v. 79, p. 365 ("shortcoming"), HS, p. 44.

(2) EW, p. 315. «هند سواراج» (Hind Swaraj) طافح بإدانات السلوك «عديم الرجولة»، والمخصي، و«المُخنث»، والثنا على «الرجولة»، و«المروءة» و«الرجال الحقيقيون». وسيكون من باب الإيغال بعيداً التخمين بشأن جذور تعظيمه للرجولة. ولكن باختصار، عانى الهندوس (مثل اليهود) من الصورة النمطية للضعف الجسدي، بينما استفاد المسلمون من الصورة النمطية للقوة البدنية (199, EW, p. 72, CW, v. 71). ولذلك ربما لا مفرّ من أن تركز حركة نهضة قومية، بل وحتى حركة تتعهدّ باللاعنف (...). على القيم العسكرية. كما يمكن للمرء أن يشير إلى اعتماد غاندي على استعارات عسكرية عادة ما صوّر نفسه فيها «فريقاً أولاً» لـ«جيش اللاعنف» مستخدماً «الأسلحة اللاعنيفة» (للاطلاع على امتداح غاندي لجوانب من النظام العسكري، قارن مع CW, v. 89, p. 332).

(3) CW, v. 85, p. 281 ("impotence"), CW, v. 86, p. 132 ("police") التشديد من عندي

الواضح أن إيذاء الآخر عنف، لكن إضرار الرغبة في إيذاء الآخر، وأكثر منه رفض الجبان الدفاع عن نفسه أو جاره، يدخل ضمن العنف بدوره، وربما كان أسوأ من الأول»⁽¹⁾.

وإذا كان غاندي يحتقر شيئاً أكثر من الجبن، فهو الجبن الذي يرتدي جبة اللاعنّف. لقد كان يُشدّد على أنه إذا لم يكن المرء قادراً على استجماع قواه الداخلية ليكون غير عنيف، فعندها لا يكون الردّ بالقوة مبرراً فحسب، بل واجباً، في حين يكون الفرار باسم اللاعنّف أمراً مخزياً. والأعمال المجمعّة لغاندي مليئة بالإدانات الصارخة للاعنّف المصطنع، من جهة، والحثّ على العنف إذا كان الخيار الوحيد الآخر هو الانسحاب الجبان، من جهة أخرى. ومن الغريب أنها تبدو كصدى وتذكّر بنقد نيتشه الحارق لـ«أخلاق العبيد» المسيحية، التي تحوّل الضعف إلى فضيلة، وفي الوقت نفسه تحطّ من قيمة الشجاعة والقوة. انظر المقاطع التمثيلية أدناه:

لا يسعني إلا أن أفضلّ العنف على الجبن:

:1920

عندما لا يكون هناك خيارٌ إلا بين الجبن والعنف، أنصح
بالعنف. ولذلك، عندما سألني ابني الأكبر عمّا كان ينبغي
عليه أن يفعل، لو كان حاضراً عند الاعتداء عليّ بشكلٍ كاد

(1) CW, v. 85, p. 235.

يفضي إلى هلاكي عام 1908، وما إذا كان عليه الفرار ورؤيتي أقتل، أم كان عليه استخدام قوته البدنية والدفاع عني، وهو ما كان يقدر عليه ويرغب فيه للدفاع عني، قلت له إن واجبه كان هو الدفاع عني، ولو باستخدام العنف... ومن هنا... أنا أدعو إلى تدرب من يؤمنون بأسلوب العنف على الأسلحة. أنا أفضل أن تلجأ الهند إلى السلاح دفاعًا عن شرفها على أن تصبح أو تظلّ تقف بجنب شاهدة عديمة الحيلة على عاها. لكنني أعتقد أن اللاعنّف متفوّق بشكل لا حدّ له على العنف، الصفح أكثر رجولة من العقاب... لكن الإحجام عن ممارسة العنف لا يكون صفحًا إلا عندما تكون هناك القدرة على إيقاع العقاب؛ ولا معنى له عندما يدعيه مخلوق عديم الحيلة. يصعب تصوّر صفح فأر عن قط عندما يسمح له بأن يُقطّعه إربًا⁽¹⁾.

:1924

اللاعنف الذي أدعو إليه لا يُجيز الفرار من الخطر وترك الأحبة دون حماية. فبين العنف والفرار الجبان، لا يسعني إلا أن أفضل العنف على الجبن. ولم يعد بإمكانني وعظ جبان باللاعنف تمامًا كما لا أستطيع أن أغري أعمى بالتمتع بمشاهد صحية. اللاعنّف هو قمة

(1) NR, pp. 132-33.

الشجاعة. وفي تجربتي الخاصّة، لم أجد أية صعوبة في أن أثبت للرجال الذين تدريبوا في مدرسة العنف تفوق اللاعنّف. فكجبان، كما كنت لسنوات، كنت أضمر العنف بداخلي. لم أبدأ في تمجيد اللاعنّف إلا عندما بدأت أبدد الجبن. فالهندوس الذين فرّوا من ساحة الواجب عندما كان الخطر محدّقاً لم يفعلوا ذلك لأنهم كانوا غير عنيفين، أو لأنهم كانوا يخشون الإضراب، وإنما لأنهم لم يكونوا مستعدين للموت أو حتى للتعرّض لأية إصابة. إن أرنّبا يفترّ من كلب ليس غير عنيف بشكل خاص. فهو يرتجف لمراى الكلب ويفترّ طلباً للحياة ناتها. فأولئك الهندوس الذين فرّوا بأرواحهم كانوا سيكونون لاعنفين حقاً، وكانوا سيجللون أنفسهم بالمجد ويضيفون ألقاً إلى إيمانهم ويفوزون بصدّاقة مهاجميهم المسلمين، لو كانوا وقفوا بصدورهم العارية والابتسامة على شفاههم وماتوا في مواقعهم. وكان الوضع سيكون أقلّ، لكن يبقى جيداً مع ذلك، لو ثبتوا في مواقعهم وردّوا ضربة بضربة. فإذا أراد الهندوس تحويل مُتسلّط مسلم إلى صديق يكن الاحترام، عليهم أن يتعلّموا أن يموتوا في مواجهة أشدّ الظروف⁽¹⁾.

(1) EW, p. 199.

لا يسعني إلا أن أفضل العنف على الجبن:

:1935

لا يمكن أن تُعلم شخصًا يخشى الموت ولا يقوى على المقاومة فكرة اللاعنّف. فالفأر الذي لا حول له ولا قوة ليس غير عنيف، لأنه دائماً تلتقمه هرة. فهو سيلتهم القاتلة بكل سرور لو كان ذلك في وسعه، لكنه يحاول أبداً الفرار منها. فنحن لا نناديه جباناً، لأنه لم يجبل على التصرف بطريقة تختلف عما يفعل. لكن الإنسان الذي يتصرف، أمام الخطر، مثل فأر يجوز أن يُدعى بحق جباناً. فهو يضمّر العنف والكراهية في قلبه وسيقتل عدوه لو كان في وسعه ذلك دون أن يضرّ بنفسه. إنه شخص غريب عن اللاعنّف. وأيما مواعظ حوله ستكون مضيعة للوقت. فالبسالة غريبة عن طبيعته. وقبل أن يتمكن من فهم اللاعنّف يجب تعليمه كيف يدافع عن حيّزه ويعاني حتى الموت في محاولة للدفاع عن نفسه ضد المعتدي الذي يراهن على خوفه ليطغى عليه. ما سوى ذلك سيؤكّد جبنه ويبعده أكثر عن اللاعنّف. وبينما قد لا تساعد في الواقع أي شخص على الانتقام، يجب ألاّ أسمح لجبان بإيجاد ملأه وراء ما يُسمّى اللاعنّف. فعدم معرفة الأشياء التي يقوم عليها اللاعنّف جعل العديدين يعتقدون بصدق أن الهروب من الخطر في كلّ مرّة فضيلة مقارنة بالمقاومة، خصوصاً عندما تكون محفوفة بالمخاطر على حياة المرء.

ويجب عليّ كمعلم للاعنف أن أحذر، قدر الإمكان بالنسبة لي، من مثل هذا المعتقد المخنث... الدفاع عن النفس... هو المسار المشرف الوحيد عندما لا يكون هناك استعداد للتضحية بالذات⁽¹⁾.

:1939

لأنني لا أستطيع في أي حال احتمال الجبن. لا تدعوا أحدًا يقول عندما ينتهي أجلي أنني علّمت الناس أن يكونوا جبناء. إذا كنت تعتقد أن طريقتي «أحيمصا» تعني ذلك أو تقود إليه، فعليك رفضها دون تردّد. فأنا أفضل كثيرًا أن تلقى حتفك ببسالة وأنت تُسدّد ضربة وتلقى ضربة على أن تلقاه في رعب مخزٍ... الفرار من المعركة... جبن، ولا يليق بمحارب. ومن المعروف أن المقاتل المسلّح يسعى إلى تجديد أسلحته ما إن يفقد التي في حوزته أو تفقد نجاعتها. إنه يترك المعركة للحصول عليها. إن المحارب غير العنيف لا يعرف ترك المعركة. فهو يندفع إلى فم أحيمصا [العنف]، ولا يضر أبدًا، ولو مرّة واحدة، فكرة شريرة. وإذا بدا لك أن أحيمصا هذه مستحيلة، فلنكن صادقين مع أنفسنا ونقول ذلك، ونستسلم... الجبن أسوأ من العنف لأن الجبناء لا يستطيعون أبدًا أن يكونوا غير عنيفين. لذلك على مثل هؤلاء الناس أن يتعلموا الدفاع عن أنفسهم ...

(1) CW, v. 61, pp. 265-66.

إن شخصاً يؤمن باللاعنف إيماناً كاملاً ينبغي أن يكون
مُتحرراً من الخوف ألف مرة أكثر من رجل مُسلح... فمن
واجب كلِّ مؤمن بـ«أحيمصا» أن يحرص على ألاَّ يسمح
بالدعوة إلى الجبن باسم اللاعنف⁽¹⁾.

تعزف هذه المقاطع التي تمتد على مدى حياة غاندي العامة على الأوتار
نفسها: اللاعنف الذي يُولد من رحم الخوف جبناً؛ والجبن أسوأ من
العنف؛ والردُّ العنيف متفوق أخلاقياً على الإحجام عن الردِّ الذي يوحي
به الخوف.

لقد أشار غاندي، بطريقة توحى بمفارقة، إلى أن الروح الأصيلة لللاعنف
وروح المحارب تتبع كليهما من مصدر واحد: التحرُّر من الخوف. لقد
كال المديح لـ«الشجاعة المجازفة» للجنود في ساحة المعركة، وأعرب عن
رغبته في «أن أتعلَّم... فنَّ إلقاء روعي من أجل قضية نبيلة»⁽²⁾. لقد أعلى
من شأن «مثال سبارتا»، لأنهم «وإن كانوا شعباً مسلحاً، ولكنه قليل
العدد، فإنهم كانوا يبذلون أرواحهم، لكنهم لا يتركون مواقعهم»⁽³⁾. لقد
استلهم من «فتى باثان [باشتون]» النموذجي، لأنه «مُتحرِّر من الخوف.
إذا أُريقت الدماء لا يختبئ في بيته. إنه يجد متعة في القتال. لا يتوقف
للتفكير في أنه قد يُصاب أو حتى يُقتل. إنه لا يخشى أبداً الإصابة. لقد رأيت
أحدهم يقف لا يتزعزع وسط الدماء التي تفور من جراحه العديدة»⁽⁴⁾.

(1) CW, v. 69, pp. 313–16. See also CW, v. 61, p. 316, CW, v. 66, pp. 420, 432, 439, CW, v. 67, pp. 11–12, 437, CW, v. 71, p. 235, CW, v. 74, pp. 92–93, 297–98, CW, v. 82, p. 302, CW, v. 85, pp. 11, 483, CW, v. 86, pp. 27, 80, 86, CW, v. 87, p. 201.

(2) CW, v. 65, p. 361 (“reckless,” “throwing”), CW, v. 74, p. 28, CW, v. 75, pp. 325–26.

(3) CW, v. 66, p. 423, CW, v. 86, p. 89.

(4) CW, v. 66, p. 436 (“fearless”), CW, v. 81, p. 438.

وبالمقابل، ويُنح غاندي (وإن كان مُخطئاً) يهود ألمانيا على ادّعاء اللاعنف والسعي مع ذلك إلى الانتقام العنيف من النازيين: «ليس هناك لاعنف في قلوبهم. فلاعنفهم، إذا جازت تسميته بذلك، هو لا عنف عديم الحيلة الضعيف»⁽¹⁾. وعلى هذا المنوال، كان غاندي ينتقد جبن أتباعه الذين يختارون العقوبات الأخرى، فراراً من الأشدّ: «لاعنف الشخص الذي ذهب إلى السجن لتفادي مصير أسوأ يؤذيه ويُشين القضية التي يستخدمها ملاذاً للفرار من الموت»⁽²⁾.

لكن غاندي اعترف أيضاً دون تكلف بإخفاقه هو نفسه في الوفاء بالمعيار البطولي الذي وضعه⁽³⁾. لقد عزا هذه الفجوة بين المثال والممارسة إلى قبوله الفكري للموت، لكن دون عزوفه الانفعالي عنه⁽⁴⁾. لكن يبدو أنه رغب، في السنة الأخيرة من حياته، أن يموت في موقعه. ولأنه أراد أن يثبت بشخصه ذاته أنه من الممكن مغازلة الموت عن وعي وقبوله بصدق. ولأنه كان يؤمن بأن «أكبر الشجاعة هي امتلاك شجاعة الإقدام على الموت»⁽⁵⁾. ولأنه أرسل العديد من أتباعه إلى حتفهم، بل وطلب منهم أن يسعوا إلى الموت، خلال القتال الطائفي. ورداً على الزعماء المحليين الذين استنصحو غاندي بشأن كيفية إنهاء إراقة الدماء الداخلية، نصحهم: «اذهبوا إلى وسط مثيري الشغب وامنعوهم من الإيغال في الجنون أن موتوا وأنتم تحاولون. لكن لا تعودوا أحياء لتبلغوا عن الإخفاق. الوضع

(1) CW, v. 68, p. 191؛ ولكن قارن مع CW, v. 69, pp. 291–92.

(2) CW, v. 72, p. 224.

(3) CW, v. 66, pp. 436, 449.

(4) CW, v. 49, p. 91.

(5) CW, v. 89, p. 225.

يتطلب تضحية ممن هم في الصف الأول»⁽¹⁾.

وبالرغم من افتتاحان غاندي ببطولات ساحات المعارك، فقد اعترف بأن على تابع ساتياغراها أن يستجمع احتياطات أكبر من الشجاعة الداخلية مما يستجمعه المقاتل المسلح: «أؤمن بأن أقوى الرجال جندي يجرؤ على الموت أعزل وصدره عارٍ أمام العدو»؛ و«أن تموت دون أن تقتل يتطلب روحًا بطولية أكبر. ليس هناك أمر عجيب في أن تقتل أو تُقتل في هذه العملية، لكن الرجل الذي يُقدّم رقبته للعدو لإعدامه، لكنه يرفض أن ينحني لإرادته يظهر شجاعة من صنف أعلى»⁽²⁾.

ويعود إلى أتباع ساتياغراها أن يقبلوا، وفي الواقع أن يستمتعوا، بفكرة إسلام أنفسهم بطريقة بكاء للذبح الجماعي. أعلن غاندي أثناء القتال الطائفي أنه «ينبغي لمثل هذا الجيش أن يكون على استعداد للتعامل مع أي طارئ»، وأنه «لتهدئة هيجان الحشود، ينبغي لهم أن يجازفوا بأرواحهم بأعدادٍ كافية لهذا الغرض. بضع مئات، وربما بضعة آلاف. فهذه الوفيات التي لا تشوبها شائبة ستضع مرّة واحدة وبصورة نهائية حدًا لأعمال الشغب». ويجب عليهم ألا ينسحبوا من المصير الذي ينتظرهم: «إذا كان لنا أن ندرّب أنفسنا على تلقي جروح الرصاص أو هجمات الحراب على صدورنا العارية، فيجب أن نعود أنفسنا على الوقوف لا نتزعزع أمام هجمات الخيالة أو الحراب»⁽³⁾.

وفي مراحل إثارة المشاعر، كان غاندي يدعو حواريه إلى المسير مندفعين،

(1) CW, v. 89, p. 129.

(2) CW, v. 66, p. 398 ("strongest"), CW, v. 84, p. 12 ("wonderful"), EW, p. 348.

(3) CW, v. 43, pp. 268-69 ("bullet"), CW, v. 66, pp. 407 ("emergency"), 447.

عزل، لكن «مبتسمين» و«مبتهجين»، إلى وادي الموت، وهم يصلون جدياً «فلتنزل الخيرات على مَنْ يقتلني»⁽¹⁾. وكان يفترض أنه كلما زاد استيعاب المرء للروح الحقيقية للاعنف الذي يُؤلّد من الشجاعة، قلّ ميله إلى الانتقام: «عندما يكون رجل مستعدّاً استعداداً تامّاً للموت حتى الرغبة في اللجوء إلى العنف لا تنتابه... الرغبة في القتل نسبة معكوسة للرغبة في الموت»⁽²⁾. ويمكن القول إن موت غاندي نفسه مثالٌ عليها.

وقال غاندي على سبيل الخطابة «أين تُطلب الشجاعة، ألتقطيع الآخرين إرباً من خلف مدفع، أم الاقتراب بثغرٍ باسم من مدفع لتقطع إرباً؟ من المقاتل الحقيقي؛ مَنْ يُبقي الموت دوماً صديقاً حميماً أم مَنْ يتحكّم في موت الآخرين؟»⁽³⁾. وحاضر في «ضباط» جيشه، «ما أتوقّعه منكم هو أن تواجهوا المحن بانسراح حتى لو تعرّضتم لأشدّ ضروب التعذيب لإنسانية، وأن تضحوا التضحية القصوى واسم الله على شفاهكم دون أي أثر للخوف أو الغضب أو تعتمل أفكار الانتقام في قلوبكم»⁽⁴⁾. واعترف في خطبة مروعة بأنها «أمة عظيمة تلك التي تتوسّد الموت»⁽⁵⁾.

ويمكن القول بإنصاف إن غاندي عزّز عقيدة الموت. (انظر إلى المقاطع التمثيلية المُجمّعة أدناه). فلا مبالاته التي لا تكثرث بالحياة ومعانقته المحزنة للموت هما الوجهان الأقلّ جاذبيةً واتساقاً في مذهبه.

(1) CW, v. 43, p. 93 ("befall"), CW, v. 66, p. 437 ("smilingly"), CW, v. 67, p. 437 ("cheerfully").

(2) CW, v. 42, p. 397.

(3) HS, p. 93.

(4) CW, v. 67, p. 422.

(5) HS, pp. 94-95.

سيكون من دواعي بهجتي أن أسمع أن أحد زملائي في العمل أردي قتيلاً بطلقٍ نارِي:

● في حين أعلن تعاطفي مع والدَيِّ الفتيين الشجاعين اللذين فقدا روحيهما [قال هذا بعد قتل حواريين من حواريه]، فإنَّ رغبتِي الأعمق هي أن أهنئهما على التضحيات التامة لابنيهما، لو كانوا سيقبلون تهاني. موت المحارب ليس أبداً مصدرًا للحزن، بل محارب من أتباع ساتياغراها. إنَّ أحد الدروس التي على أُمَّة تتوق إلى الحرِّيَّة أن تتعلَّمها هي تبديد عدَّة مخاوف؛ الخوف من فقدان المنصب والثروة والموقع والخوف من دخول السجن والأذى الجسدي وأخيرًا الموت⁽¹⁾.

● لا أعطي حاليًا أية قيمة لدخول السجن. لا أشعر بأي ابتهاج عندما أسمع أن أحد زملائي في العمل حُكِمَ عليه بالسجن لسنة أو سنتين، أو حتى لخمس سنوات. سيكون من دواعي ابتهاجي أن أسمع أن زميلًا في العمل مثل جايرامداس قد أردى قتيلاً بطلقٍ نارِي أو أن زميلًا آخر، ذا شخصية لا تشوبها شائبة أيضًا، قد هُشِّمَتْ جمجمته... فلو أن رامنيكلال قد قدَّم رأسه قربانًا، ولو أن بقعة من بولسار قد خضبت بدمائه، لكان لكم عندها ما يُبرِّر أن تطلبوا مني أن آتي... فمثل هذه البطولة تتكشف في آناند

(1) CW, v. 43, p. 297.

وديهوان. هناك ضرب المتطوعون ليلاً، وأطفئت الأنوار،
ربما لكي تستمتع الشرطة بضربهم. لو نادوني من هناك،
لذهبت فوراً. هناك مناسبة تستحق الاحتفاء بها⁽¹⁾.

● حاول عاملان هندوسيان وعامل مسلم السيطرة على
أعمال الشعب ولقوا حتفهم وهم يحاولون. ولست تعيساً
لموتهم. لست أبكيهم. لقد قدّم غانيش شانكار فيديارتي
حياته بصورة مُشابهة في أعمال الشعب التي عرفتها
كانبور... لقد كنت سعيداً لوفاته. لا أقول كلّ هذا لإثارتكم.
أريد أن أفهمكم أنكم إن لم تتعلموا شيئاً عدا كيف تموتون
فسيكون كلّ ذلك جيداً⁽²⁾.

بل إن غاندي كان يُحجم من تقديم العزاء عند تلقيه النعي. (انظر الأعمدة
أسفله للاطلاع على رسائل عرفان غاندي النموذجية). وبدلاً من ذلك،
كان يتفلسف بأن الولادة والموت مرحلتان لا مفرّ منهما ومتكاملتان من
دورة الطبيعة، «إنه الأمر ذاته تماماً»⁽³⁾. وبعيداً عن أن يكون الموت سبباً
للحزن أو الجزع بالنسبة لغاندي، فإنه «ظاهرة ضرورية ومفيدة»،
و«خلاص»، و«تلك المناسبة العظيمة والتي لا مفرّ منها»، و«منة»،
و«صديق. وما عسانا كنا نفعل لو لم يكن هناك موت؟»⁽⁴⁾

(1) CW, v. 43, pp. 327–28.

(2) CW, v. 84, pp. 399–400 مع CW, v. 43, p. 339, CW, v. 49, p. 496, CW, v. 51, p. 381,
CW, v. 84, p. 423.

(3) CW, v. 50, p. 171.

(4) CW, v. 44, pp. 34 (“beneficial”), 164 (“friend”), 325 (“deliverance”), CW, v. 50, pp. 47
 (“grand”), 296 (“boon”), CW, v. 87, p. 201.

لماذا نحزن لموت أي كان؟:

● ليس هناك أدنى سبب للحزن على موت الأصدقاء. لا أحد يموت أبداً قبل أجله. إن فكرة الموت قبل الأجل وهم. فحتى موت وليد عمره يوم واحد ليس قبل وقته. إنه لا يعني إلا أن الأفعال التي يتعين إنجازها عبر ذلك الجسد قد أُنجزت. لا نشعر بألم الموت إلا لجهلنا وأنانيتنا. إننا نشعر بالاضطراب لموت الأصدقاء أو الآخرين بسبب جهلنا بخصائص الروح، ولأننا لا نتمنى لأنفسنا الموت⁽¹⁾.

● لماذا تشعر بكلّ هذه التعاسة؟ ففي نهاية المطاف لم تنزل بك مأساة كبرى. ليس هناك قانون بأنه لا ينبغي للمرء أن يموت شاباً. وعلاوة على ذلك، ليس لدينا، أنا وأنت، طفل واحد، وإنما عدد لا يحصى من الأطفال. بعضهم سيموتون وآخرون سيولدون ليأخذوا أماكنهم. لماذا نُحصى إذن مَنْ يموت وَمَنْ يعيش؟⁽²⁾

● أن تحزن لوفاة الولد أو الزوج أمر لا معنى له ويكشف جهلنا. ولا ينبغي أن آخذ هذا على أنه مجرد كلام حكيم؛ إنه الحقيقة التي ينبغي تأملها حتى تنغرس في قلوبنا وتتحوّل إلى أفعال. بما أن الموت حقٌّ على الجميع، فإن السؤال الوحيد المطروح هو متى. لماذا علينا إذن أن نحزن

(1) CW, v. 44, pp. 212-13.

(2) CW, v. 46, p. 252.

لموت أي كان؟ الجسد وحده يفنى. إنها طبيعته، ولذلك
لا سبب للعجب عندما يموت. ومن المؤكد أن الروح التي
تسكن الجسد لا تموت أبدًا، إنها لا فانية. عندما نعرف هذا
كحقيقة مؤكدة، لماذا نحزن للموت؟⁽¹⁾

وإذا كان غاندي يؤمن بهذا يقينًا، ولا يبدو أن هناك سببًا لعدم تصديق
كلمته، فإنه يجبر المرء على التساؤل عن سبب اعتباره اللاعنف نداءً بهذه
القدسية: إذ يعترف أن قتل امرئ ليس بذاك الأمر الجلل. وعلاوة على ذلك،
إذا كان الموت والحياة مجرد أمر جانبي في دورة الحياة الأبدية للطبيعة،
فلماذا ينبغي لاستعداد تابع ساتياغراها للموت أن يُحرَّك ضمير أي كان،
ولماذا ينبغي اعتبار عشق تابع ساتياغراها لموته أمرًا بطوليًا؟

يسير تابع ساتياغراها المثالي، وفقًا لغاندي، مبتسمًا ومبتهجًا إلى خط
إطلاق النار ويُقطع إربًا. لكن تابع ساتياغراها يشبه عندها كثيرًا عضو
جماعة دينية مصابة بلوثة أو مختلة عقليًا. صحيح أن شهود مثل هذا
المشهد قد يدفع الجمهور إلى الشعور بالغثيان، لكن من العسير تصوُّر
كيف يمكن لمثل هذا الموت أن يُلهم احترام الضحية.

أو ليست حقيقة أن من يقف على استعداد للتضحية أسمى تضحية من
أجل مثال من المثل يتشبَّث أيضًا، وفي الوقت نفسه بالحياة، وإن لم يكن
يكره الموت كراهية مطلقة، فإنه لا يزال يحب الحياة -ولا يحب الحياة
فقط لأنها تمكِّنه من التضحية بها، وهو تصوُّر غاندي للحياة- أو ليست
تلك الحقيقة ما يجعل سائر البشرية تعظَّم الشهداء ويجعل ضمائرنا

(1) CW, v. 46, p. 343.

تتحرك لموتهم قبل الأوان وغير العادل؟

وبهذا ينزل غاندي من شأن الحياة، بحيث يصبح لا فرق بين الحياة والموت حقاً، ويصبح السعي إلى الحفاظ على الحياة، دون ذكر الثمن النهائي للتضحية بالنفس، تناقضاً في المصطلح. فلماذا يضحى المرء بحياته من أجل الآخرين إذا لم يكن أحد يبالي بموته أو حياته، أو ينبغي ألا يبالي؟

ويصعب أيضاً استكناه سبب شعور غاندي بـ«الابتهاج» للموت العنيف لأحد أتباع ساتياغراها أو لت هشيم مجتمه. فبذل النفس من أجل قضية عادلة يستحق بكل تأكيد أسمى آيات الاحترام، لكنه يستحق هذا الإعجاب تحديداً، لأنه تضحية؛ لأن الحياة تستحق أن نحياها، ولأننا جميعاً نحب، أو ينبغي أن نحب، الحياة. أوليس الاعتراف الملائم بروح الاستشهاد لا يُعدُّ ابتهاجاً، بل اندهاشاً من قدرة البشر على التصرف بتفانٍ لمثال من المثل، وفي الوقت نفسه الحزن على روح فاتتها بهجة الحياة حتى النهاية؟ إذا لصق الحزن والمأساة بالاستشهاد، فلا يمكن أن يكون ذلك إلا بسبب ما نُكن للحياة من تبجيل.

وكان غاندي يرفض اللاعنف الناجم عن الضعف، لأنه -إضافة إلى عاره- عديم الفعالية سياسياً. فإذا كان أنصار اللاعنف يُحجمون عن العنف فقط خوفاً من الانتقام، فإن للمسيء عندها الحق كل الحق في أن يكره ما قد يحدث إذا وصلوا إلى السلطة وسيطروا على أجهزة القمع، ولديه لذلك كل المحفزات ليقاوم تسليم السلطة حتى الموت.

ولإقناع مسيء بأن اللاعنف ليس عن ضعف، ومن ثمّ ليس هناك ما

يخشى إذا تغيّرت الأوضاع، على أتباع ساتياغراها أن يثبتوا -أن يظهروا- الرغبة في التخلي عن العنف حتى عندما لا يخشون الانتقام العنيف. ولعلّ أحد هذه السيناريوهات يتحقق إذا تجاوز عدد من يجنحون إلى اللاعنف كثيراً وكان بإمكانهم إلحاق الهزيمة بالمسيء بسهولة، لكنهم اختاروا ألا يفعلوا.

وقال غاندي بأسى إن لاعنف «الهند كأمة... هو لاعنف الضعيف». «لو كانت غير عنيفة في إدراكها لقوتها، لفقد الإنجليز دورهم كغزاة مريبين... لو كان بمقدورنا، كهنود، أن نتصوّر أنفسنا ولو للحظة شعباً قوياً يحتقر الإضراب، لانتهى خوفنا من الإنجليز، سواء كجنود أو تجّار أو إداريين، ولانتهى عدم ثقتهم بنا»⁽¹⁾. وقال مرّة أخرى: «في اللحظة التي سيشعر فيها الإنجليز أنهم وإن كانوا أقلية لا أمل لها، فإن أرواحهم محمية من الأذى، ليس بسبب أسلحة التدمير المنقطعة النظير التي توجد تحت تصرفهم، وإنما لأن الهنود يرفضون إزهاق أرواح حتى مَنْ قد يعتبرونهم مخطئين تماماً، وستشهد تلك اللحظة تحوّلاً في علاقة الأمة الإنجليزية بالهند»⁽²⁾.

لكن ظروف الحياة على أرض الواقع كثيراً ما تحول دون برهنة عملية على الروح الحقيقية للاعنف. فعلى سبيل المثال، كيف يمكن لسجناء أشبه بهياكل عظمية في معسكر اعتقال نازي فقدوا أي قدرة على المقاومة، ناهيك عن القدرة على التغلّب على المسيئين، أن يبرهنوا على أنهم لن ينتقموا إذا عكست الأدوار؟ للتأكد، يمكن القول دفاعاً عن غاندي بأنه

(1) CW, v. 62, pp. 29-30 ("distrustful"), CW, v. 63, p. 59, CW, v. 66, p. 406.

(2) NR, p. 154.

إذا كان للاعنف أن ينجح، فإنه لا يمكن اللجوء إليه فجأة إذا كان النزاع قد اجتاز سلفاً نقطة اللاعودة.

ويمكن للمرء أن يلاحظ أيضاً في المقاطع المستشهد بها للتو فرضية غاندي الساذجة بأن الحاجز الأساسي بين البريطانيين والهنود حاجز نفسي («الخوف» و«انعدام الثقة»)، وليس تصادمًا ماديًا للمصالح. وفي مناسبات أخرى، زايد بأن البريطانيين عارضوا استقلال الهند بسبب «الجهل الكبير بالهند الذي يسود في إنجلترا. ويعتقد العديد من أفاضل الإنجليز أننا غير قادرين على الدفاع عن أنفسنا أو إدارة ماليتنا»⁽¹⁾.

بيد أن جوانح غاندي كانت تنطوي عملياً على بعض الأوهام بأن العلاقة العدائية وما ينتج عنها من لجوء البريطانيين إلى القوة ناتج عن الاستغلال الوحشي، في حين سيحسم في نهاية المطاف في القرار البريطاني بالبقاء أو الرحيل ليس من خلال نيل ثقتهم، وإنما حسابهم البارد للخلاصات.

(1) CW, v. 48, p. 431-35.

غاندي وفلسطين

رفض غاندي العقائد الأيديولوجية التي يقوم عليها الاستعمار الصهيوني لفلسطين. ولم يقبل أن لليهود حقًا إنجيليًا في فلسطين، وبدلاً من ذلك نصحهم بالحصول على حقوقهم في البلدان التي يقيمون بها. وإذا قرّر اليهود الذهاب إلى فلسطين، فينبغي أن يكون ذلك بموافقة السكان الأصليين. وإلا «فإنهم يتقاسمون مع البريطانيين نهب شعب لم يُسئ إليهم في شيء»⁽¹⁾. وكان غاندي في أواخر حياته على ما يبدو أقل انتقاداً لتطلع اليهود إلى الاستيطان في فلسطين، لكنه استنكر مع ذلك أنهم «يسعون إلى فرض أنفسهم على فلسطين بمساعدة أميركا وبريطانيا، والآن بمساعدة الإرهاب العاري»⁽²⁾. وقد ظهرت صناعة تحاول إثبات أن ما قاله غاندي مرارًا وتكرارًا عن فلسطين والصهيونية لم يكن يقصده حقًا⁽³⁾. والنتائج العلمي ضارب في التكهّنات وغني في الاستطرادات، لكن يفتقر إلى الأدلة المؤيدة.

(1) 38-137, pp. 68, v. CW; قارن مع 106, p. 48, v. CW, «الصهيونية بمعنى إعادة احتلال فلسطين ليست لها أية جاذبية بالنسبة لي».

(2) CW, v. 84, pp. 44041-.

(3) انظر على سبيل المثال:

Simone Panter-Brick, *Gandhi and the Middle East: Jews, Arabs and imperial interests* (London: 2008).



غاندي عند مدخل قصر سانت جيمس (لندن ، 1931)

الفصل الثالث

استحثاث الوعي

كيف تعمل ساتياغراها؟

أعلن غاندي أن ساتياغراها ليست لاعنفية فحسب، وإنما أيضًا لا تلجأ إلى الإكراه. وفي الواقع، كانت حملات المقاومة المدنية التي خاضها تجمع بين درجات متفاوتة من الزهد والإكراه⁽¹⁾.

كان هناك في جهة تكتيك مثل الإضراب عن الطعام، الذي ينطوي بشكل واضح على قدر كبير من المعاناة الذاتية، لكن يمكن أن ينطوي أيضًا على إكراه. فدفاع غاندي على الإضرابات عن الطعام من أجل الصالح العام لا يقنع.

(1) من أجل الاطلاع على تحديد غاندي لمختلف أشكال ساتياغراها، انظر 15-214، NR.

لقد افترض غاندي تمييزاً بين الإضرابات عن الطعام التي لا حظ للنفس فيها والتي ترمي إلى إفادة الآخرين (لا إكراه فيها) مقابل الإضرابات عن الطعام المتسمة بالأناية التي تهدف إلى الاستفادة الشخصية (المتسمة بالإكراه). وقد تبدو بعض الحالات مباشرة تمامًا: والد يضرب عن الطعام لثني ابنه عن تعاطي الكوكايين مقابل ابن يضرب عن الطعام لإقناع والده أن يشتري له سيارة بي. أم. دبليو.

لكن الأمر ليس بهذه البساطة في الحياة الحقيقية. فإذا لم يكن المسيء المزعوم يتفق على مشروعية هدف المضرب عن الطعام، فسيعتبر الإضراب عن الطعام بلا شك إكراهياً حتى لو كان المضرب يتصوره عملاً إحصانياً.

وعندما نام غاندي في وقت متأخر من حياته عارياً مع فتيات صغيرات لاختبار قدرته على ضبط نفسه جنسياً، أُصيب الكثير من رفاقه بالفزع لدرجة قطع العلاقات معه. واعتبر غاندي قطع العلاقات معه شكلاً من أشكال «عدم التعاون معي»، وانزعج كثيراً من الخسارة. ومع ذلك، أصرّ على أنه لم يرتكب أي خطأ، وأن إيمانه الديني قد ضبط سلوكه في الواقع طوال المسار الذي اختاره. فلو كانوا خطوا خطوة أبعد وأضربوا عن الطعام احتجاجاً وإيقاظ ضميره، فهل كان فعلهم سيكون فعلاً إكراهياً أم غير إكراهي؟

وفي حالة عدم وجود توافق آراء أخلاقي مشترك بين المضرب عن الطعام «صاحب الكفارة» والمسيء المزعوم، فسيعتبره المستهدف بالإضراب عن الطعام من منظوره الذاتي دائماً إكراهياً كما سيكون -بالنسبة لجميع من يعرف ويمكن أن يعرف- وبعبارات غاندي نفسه، إكراهياً من

الناحية الموضوعية. فمن يستطيع أن يقول، في نهاية المطاف، ما إذا كان هدف المضرب عن الطعام مسوغاً أم لا؟

واعترف غاندي نفسه بأن المضرب عن الطعام، مهما كان صادقاً، قد يكون دافعه خاطئاً، وبالتالي مذنباً أخلاقياً، كما أن الأهداف التي تتسم بنكران الذات، والتي تتسم بالأنانية لا يفصل بينها إلا خيط رفيع. وبعد إيداع غاندي السجن لاحتجازه على ضريبة الملح دخل إضراباً عن الطعام، لأن البريطانيين رفضوا السماح له برؤية رفاقه المرضى، ومن ثمّ عدم السماح له بتقديم العون لهم والتسرية عنهم. وأقرّ بأن «الحرمان من التواصل مع رفاق السجن هؤلاء... أمر لا يطاق بالنسبة لي». فهل كان إضرابه عن الطعام أنانياً أم ناكراً للذات؟

وأعلن غاندي أنه إذا كان ربما حاول «عن جهل... أن يحمل الأمانة بالإضراب عن الطعام على الموافقة على طلب غير لائق، أنا واثق أنه لا يجب على الأمة الرضوخ لمثل هذا الطلب لمجرد الحفاظ على حياتي، مهما كان اقتناعها بما قدمت لها من خدمات في الماضي». وعلى هذا المنوال، اعترف، صادقاً ولا شك، أن «الإضراب عن الطعام الذي أفكر فيه... لا يرمي بأي حال إلى حرف أي شخص عملاً يؤمن بأنه طريق الواجب بالنسبة له». ولكن أليس أكثر رجحاناً أن يسلم الآخرون، حتى لو كان على خطأ، لأنهم لا يريدون للمهاتما أن يعاني أو يموت؟ فإضرابه عن الطعام سيُشكّل إكراها، وإن لم يرد ذلك.

ويمكن لسلاح الإضراب عن الطعام أن يصبح بسهولة، في يد شخصية عامة تحظى بالاحترام لكنها مدخولة، عرضة لسوء الاستخدام. فدفاع

غاندي عن أنه يجب على المرء أن يثق في حكم تابع ساتياغراها ذي خبرة مثله لا يكاد يساعد. كما أن موافقته في بعض الأحيان على إضرابات عن الطعام مدفوعة بالمصلحة الذاتية، وإن كانت لا غبار عليها من الناحية السياسية، تزيد المياه تعكيراً. ولذلك، سلّم بأنه «في ظلّ ظروف مُعيّنة يجوز الإضراب عن الطعام من أجل الزيادة في الأجور نيابة عن المجموعة التي ينتمي إليها المرء»، وأنه «إذا كان الجوع لا يستطيعون الحصول على ما جمع من الحبوب المُخصّصة للغذاء بالرغم من أنها موجودة في المستودع... يمكنهم الدخول في إضراب عن الطعام حتى الموت، وبالتالي تأمين الغوث لأنفسهم وللآخرين». فماذا حدث لتعليماته التضييقية بأنه يجب على المرء ألاّ يستفيد شخصياً من إضراب عن الطعام؟

وزعم غاندي أيضاً أن دفع شخص للتحرك (أو عدم التحرك) نتيجة لإضراب عام عن الطعام ليس أكثر إكراهاً من دفع شخص إلى التحرك (أو عدم التحرك) بدافع «محبة يسوع» أو حبّ الأسرة والأصدقاء، ولكن أمام الإغراء الآثم، يختلف الصوت الخاص لضمير المرء الذي يخزه لـ«فعل الشيء الصحيح» في نوعيته عن إكراه مشهد عام ينال حتماً، مهما كانت نية المضرب عن الطعام، من هدف الإضراب. فالتحرك بدافع حبّ يسوع يسجل انتصار قدرة المرء المعنوية على الانتصار على دوافعه الأقلّ نبلاً، بينما إذا استسلم المرء للضغوط الخارجية للإضراب عن الطعام، فقد يكون ذلك فقط بسبب الزهو والخوف من الخسارة الدنيوية. وبالتالي عند إغواء الخيانة الزوجية، يكبح صوت ضمير المرء «الأعلى» رغباته الجسدية، لكن إذا قرّر زوج يعرف ذلك الإضراب عن الطعام، فقد يستحث ضمير الزاني المحتمل، أو قد لا يستحثه إلاّ تحرّجه

من ضبطه، وخوفه من الإهانة العامة وفقدان الحقوق الزوجية⁽¹⁾.

وإذا كان الإضراب عن الطعام يقف في أحد قطبي ساتياغراها، ففي الطرف الآخر يقف ما يسميه غاندي «عدم التعاون» مثل الإضراب العام، الذي كان يؤيده من حيث المبدأ⁽²⁾، وإن كان يعرقل سير شؤون المجتمع⁽³⁾. فهذا التكتيك يتسم بالإكراه على نحو واضح، لكن ما دام المشارك يواجه خسارة من راتب وعقوبات تأديبية، بل وحتى الاعتقال والموت، فإن عدم التعاون ينطوي أيضاً على درجة من المعاناة الذاتية⁽⁴⁾.

وللتخفيف من حدة جانبها الإكراهي، شدّد غاندي على أن حتى عدم التعاون «يجب أن يجد جذوره في الحب. ولا ينبغي أن يكون هدفه معاقبة الخصم أو إيداءه... يجب علينا أن نجعله يشعر أن لديه صديقاً فينا، وعلينا أن نحاول الوصول إلى قلبه». ومرة أخرى: «نحن نريد أن نشلّ الحكومة التي نعتبرها نظاماً، لكن ليس بالترهيب، ولكن عن طريق ضغط براءتنا الذي لا يقاوم»⁽⁵⁾. وسلّم، من باب التحليّ بـ«العملية»،

(1) من أجل الاطلاع على النقاط الواردة في هذه الفقرات، انظر:

CW, v. 44, pp. 155-56, 184 ("deprivation"), CW, v. 51, pp. 73 ("ignorance"), 253, 316, CW, v. 53, pp. 228-30 ("Jesus"), 259 ("Jesus"), CW, v. 55, pp. 410-13, CW, v. 56, p. 369, CW, v. 72, p. 458, CW, v. 73, pp. 90-93, 156, CW, v. 80, p. 63, CW, v. 83, pp. 400-1 ("certain"), CW, v. 84, pp. 233-34 ("collections"), CW, v. 86, p. 105 ("duty"), NR, pp. 183, 193, 313-14, 331.

ومن أجل الاطلاع على تجارب غاندي، انظر:

CW, v. 86, pp. 414, 416, 420, 441-42, 452-53, 465-66, 475-76 ("noncooperation"), and Wolpert, Gandhi's Passion, pp. 225-30.

(2) CW, v. 48, p. 243.

(3) NR, p. 121.

(4) CW, v. 74, pp. 164-65.

(5) CW, v. 68, p. 30 ("roots"), EW, pp. 260-61, NR, pp. 131 ("intimidation"), 145.

وللاطلاع على سيناريو غريب قليلاً ما لغاندي، يتنازل فيه المستأجرون عن أكثر مما كان يطلبه مالك شرفه من ممتلكاتهم أصلاً أو أكثر مما يمكنه استخدامه، وبالتالي يحوّلون المالك من خلال التعاون (التنازل عن العقار)،

أنه حتى وإن كان عدم التعاون ينطلق من «لاعنف الضعيف»⁽¹⁾، أي ليس من حبّ للمستغلّين، ولكن خوفاً من أن يستثير هجوم عنيف عليهم انتقاماً أكثر عنفاً من جانبهم، فإنه قد يكون مع ذلك فعّالاً «إذا انخرط فيه عدد كافٍ من الناس»⁽²⁾. ولكن غاندي رفض بعناد الاعتراف بأن الحبّ والبراءة، وإن كانا قادرين على خفض درجة حرارة معركة عمالية ساخنة، يبقى الإكراه العامل الغالب في عدم التعاون⁽³⁾.

وأثناء المعاناة الذاتية للإضراب عن الطعام والقوة الإكراهية للإضراب، تحتلّ تكتيكات غاندي الأخرى مكاناً وسطاً. وقد دعا إلى مختلف أشكال العصيان المدني، مثل عدم دفع الضرائب، التي تحتوي على نسب متساوية من الإكراه (حرمان الدولة من الإيرادات اللازمة، وتقويض سيادة القانون) والمعاناة الذاتية (الذهاب إلى السجن ودفن غرامات عقابية)، وإلى مختلف أشكال المقاومة المدنية، والتي تتدرّج سمة الإكراه فيها من (أشكال المقاطعة التي تغطي عليها الصبغة «السياسية» أكثر، والتي تستهدف السلع التي ينتجها بلد آخر) إلى (الاعتصام «غير العدواني») في الدرجة الأدنى⁽⁴⁾.

وعدم التعاون (رفض العمل في أي من الأرض)، والحبّ (إعطاؤه أكثر مما كان يطلب)، انظر CW, v. 72, pp. 226-27.

(1) يستخدم غاندي أيضاً عبارة «المقاومة السلبية» للدلالة على اللاعنّف المصطنع («لاعنف الضعفاء») ويميزه عن المادة الأصلية.

(2) NR, pp. 134-35 ("suffi cient"), 155.

(3) فيما يتعلّق بدفاع غاندي السفسطائي عن عدم التعاون باعتباره لا إكراهي، انظر EW, pp. 166-69, 335.

(4) على الرغم من حبّ غاندي المضربين على عدم مضايقة الزبائن المحتملين لمخزن خمور، فإنه أجاز مع ذلك ما يلي: «لكن يجوز للمرء قطع العلاقة مع هؤلاء الأفراد عن طريق [عدم] الذهاب إلى منازلهم لحضور ولائم في مناسبات مثل حفلات الزفاف، بل ينبغي للمرء أن يفعل ذلك. وباختصار، لا ينبغي التحرّش بهم. وإن الألم الذي يشعرون به حين لا تذهب إلى بيوتهم لتناول الطعام لا يمكن اعتباره تحرّشاً» (CW, v. 46, p. 205). وحتى وإن لم يكن تحرّشاً، يمارس مثل هذا النبذ إكراها أخلاقياً: فإذا توقّف الأفراد عن احتساء الكحول، فقد يكون

وأخيراً، تجدر الإشارة إلى شكلٍ قوي، وإنْ كان كامناً، للعنف يتربّص في خلفية أنشطة غاندي، وهو شكل كان يدركه تمام الإدراك ولا يتورّع عن استغلاله. وإذا لم يرضخ البريطانيون لمطالبه غير العنيفة، فسيكون عليهم عندها التعامل مع مقاومة عنيفة بالجملة بدلاً من ذلك. وذكر غاندي «لقد ادّعت في مراسلات خاصّة مع أصدقاء إنجليز... أنه بفضل وعظي المستمر بإنجيل اللاعنف، وإثباتي بنجاح لفائدته العملية، ظلّت قوى العنف، الموجودة بلا شك...، تحت السيطرة الكاملة»⁽¹⁾. ومن ناحية أخرى، لا يوجد أي سبب للشكّ في أن غاندي كان صادقاً في اعتقاده الذي كثيراً ما ذكره بأن من شأن لجوء الهنود إلى العنف والإرهاب أن يضرّ في نهاية المطاف بقضيّة استقلال الهند⁽²⁾.

لقد كان جوهر عقيدة غاندي هو القوة التحويلية للمعاناة الذاتية النقية. كان يعتقد أن من شأن مثل هذه المعاناة أن تبرز «الكرامة الإنسانية» للضحية، وبذلك «تسرّع إحياء... الضمير الكسول» للجمهور، و«توقظ الحياة» في «الضمير النائم»، و«تسرّع عودة الضمير الميت إلى الحياة»، و«تجعل الناس يفكرون ويتحرّكون»، وتضرب على «وتر التعاطف»، و«تستحثّ خروجنا من رضانا بما هو قائم»، و«يستدعي بما يعبر عنه من حقيقة وحبّ من خلال معاناته»، «الخيرية المتأصلة في طبيعة البشر».

وأعلن غاندي أن «التضحية تبلغ من العالم أبعد أثر... فهي تستطيع

ببساطة لتخفيف ألم النبذ.

(1) CW, v. 78, p. 224, NR, pp. 154 ("claimed"), 222, 229.

(2) CW, v. 48, p. 338.

ترويض أكثر الوحوش وحشية، وبالتأكيد أكثر الرجال توحُّشًا»، وتحمل «الرأي العام... على التخلي عن النفاق الذي ينخره»⁽¹⁾.

وما إن يُستنهض الرأي العام من خموله، حتى يكون تابع ساتياغراها في موقع يسمح له بـ«تعبئته... ضد الشر الذي خرج لاستئصاله، مُستخدمًا الإثارة الواسعة والمُكثِّفة»، بينما «نجاحه هو النتيجة المؤكَّدة للمعانة القصوى التي كابدها طائعًا»⁽²⁾.

بيد أنه ليس واضحًا لماذا من شأن المعانة في ذاتها وبذاتها، مقرونة بـ«الحب» لهذه الغاية، أن تستثير المتفرجين، فما بالك أن تحوّل المسيء المزعوم. فلو أن نصف سكان أميركا «المعارضين للإجهاض» تقاطروا إلى مصحات الإجهاض وتعهدوا بخوض إضراب جماعي عن الطعام حتى الموت حتى تتوقف هذه المصحات عن إجراء عمليات الإجهاض، وفقط إذا توقفت عن ذلك، فمن المؤكَّد تقريبًا أن النصف «المُساند للإجهاض» لن يتحوّل نتيجة لهذا المشهد.

وبعبارة أخرى، ليست المعانة وحدها ما يؤثر، وإنما المعانة سعيًا إلى تحقيق هدف مشروع. بيد أن اعتراف الجمهور بمشروعية مثل هذا

(1) CW, v. 43, p. 126 (“touched”), CW, v. 46, p. 105 (“wildest”), CW, v. 51, pp. 167 (“sluggish”), 199 (“people”), CW, v. 55, p. 412 (“awaken”), CW, v. 68, p. 140 (“dignity”), CW, v. 69, p. 70 (“evoke”), CW, v. 78, p. 223 (“stir”), CW, v. 84, p. 372 (“eating”), CW, v. 86, p. 104 (“dead”), CW, v. 90, p. 202 (“sleeping”), NR, p. 35 (“sympathetic”).

لا يبدو غاندي متسقًا تمامًا بشأن الخصلة أو العضو الذي تجذبه ساتياغراها. وإضافة إلى لمس الضمير، يتحدث بصيغ مختلفة من الرغبة في «جذب... العقل والقلب»، و«جذب قلوب الناس وأرواحهم»، و«لمس شغاف القلوب»، و«نداء إلى أسمى ما في الإنسان»، و«استمالة عقولهم وقلوبهم». انظر:

CW, v. 43, p. 312, CW, v. 45, p. 222, CW, v. 48, p. 189, CW, v. 54, p. 417, CW, v. 55, p. 258, CW, v. 56, pp. 197-98, 254, CW, v. 58, p. 159, CW, v. 67, p. 195, CW, v. 78, p. 223, CW, v. 84, p. 372, NR, pp. 178, 181, 191, 202.

(2) CW, v. 43, p. 392 (“result”), NR, pp. 77 (“mobilize”), 191.

الهدف يفترض الوجود المسبق لتوافق آراء واسع، حتى وإن كان كامناً أو أولياً، يرى أن الضحايا يستحقون بحق ما يبحثون عنه.

وعندما كان غاندي يُشير إلى «براءة»⁽¹⁾ الضحايا، فقد كانت في الواقع، وإن لم يحدّد ذلك دائماً، براءة بمعنيين: في الوسائل؛ فالضحية وإن كان على استعداد ليألم، فإنه يُحجم عن إيلاّم الآخرين. وفي الغايات؛ إذ يبحث الضحية عن حق لا يمكن نكرانه بضميرٍ مرتاح، لأنه يجد صداه في «المعنى الأخلاقي العادي للعالم»⁽²⁾. وأوضح غاندي «أعتمد من أجل النجاح... بالقدر نفسه على العدالة الملازمة للقضية الوطنية والوسائل العادلة المعتمدة لإحقاقه»⁽³⁾.

وإذا كان «سلاح» ساتياغراها «يتوقف نجاحه على حشد الرأي العام»⁽⁴⁾، عندها كلما كانت الغايات غير قابلة للجدل، استتارت المعاناة الذاتية كوسيلة بصورة أكبر «الرأي العام المتنوّر» للتحرك⁽⁵⁾. لكن بالمقابل، لن تتمكن المعاناة الذاتية من اختراق الدروع الانفعالية للمسيئين الذين لديهم اقتناع، إما بسبب مصلحة معادية أو أيديولوجية معادية أو بسبب كليهما مجتمعين، كما يحدث غالباً، بأن مطالب الضحية تفتقر إلى العدالة. وإن مشهد الاستشهاد قد يُثير درجة من الشفقة، لكنه لن يدفع، بذاته ولوحده، من يستفيدون من النظام والمقتنعين بعدالته إلى تقديم تنازلات أساسية.

(1) CW, v. 68, p. 20.

(2) EW, p. 249.

(3) CW, v. 46, p. 313.

(4) CW, v. 48, p. 483.

(5) NR, p. 213.

وسلمَ غاندي نفسه أن محاوريه قد يكونون مقتنعين بصحة آرائهم اقتناعه بآرائه («ألاحظ أن ما قد يبدو لي انحيازاً قد يكون تنوّراً لآخرين»)⁽¹⁾، وأن عليه أن يكون منفتحاً على إمكانية أن يكون مخاطبوه محقين، وأن يكون هو ذاته مخطئاً («لا أحد في هذا العالم يمتلك الحقيقة المطلقة. هذه خاصية الله وحده. كل ما نعرفه هو الحقيقة النسبية»)⁽²⁾. لكن لماذا إذن سيتحوّل المسيء (المزعوم) أو عليه أن يتحوّل بالتضحية الذاتية لمن يسعون إلى تحقيق هدف عدالته مشكوك فيها يقيناً؟

ولاحظ غاندي محقاً أنه، خلافاً للوقت الذي يدخل فيه العنف الحلبة، إذا تبين أن الهدف خارج الإطار، فستكون معاناة أتباع ساتياغراها قد تسببت في الأذى البدني للمسيء المستهدف بشكلٍ ظالم: «فهو لا يجعل الآخرين يتألمون لأخطائه»⁽³⁾، لكن الحقيقة أيضاً أن المصلحة الذاتية القوية للمسيء الملقوفة بالشكل الملائم في أيديولوجية من التقوى يكاد يكون من المؤكّد أن تكبت صوت العدل وتعلو على نداءات الرحمة، ملغية بذلك قوة اللاعنف.

وما أحاول قوله هنا يتضح جلياً في هذا المقطع من غاندي: «يأتي نصرنا من الآلاف التي تُقتاد إلى السجون كما تُقتاد الخراف إلى المذبح. فلو كانت خراف العالم مستعدة للانقياد برغبتها، لكانت أنقذت نفسها منذ وقتٍ طويل من سكين الجزار. نصرنا يأتي مرّة أخرى من أن نُسجن

(1) CW, v. 44, p. 41, CW, v. 48, p. 405, CW, v. 53, p. 170 ("prejudice"), CW, v. 55, p. 1, CW, v. 79, p. 102, NR, pp. 6, 20, 193.

(2) CW, v. 69, p. 212, CW, v. 84, p. 199 ("Nobody"), NR, p. 193.

أقرّ غاندي، فيما يتصل بنقطة ذات صلة، أنه لا يمكن بسهولة زحزحة فكرة يعتنقها صاحبها بصدق (CW, v. 60, p. 500).

(3) HS, p. 91 ("mistakes"), NR, p. 3.

دون أي ذنب. كلما زادت براءتنا، زادت قوتنا وأسرع نصرنا»⁽¹⁾.

وإذا كان الظلم غير مقبول أخلاقياً، فإن المعاناة الذاتية تستطيع أن تحز الضمير ويرجح أن تفعل. لكن هذه الخمرة القوية من المصلحة والأيدولوجيا يمكن أن تقنع بسهولة بأن جوانح من أحيط بهم تنطوي على نوايا إجرامية، ومن ثم يستحقون مصيرهم. فهل وخز اقتياد ملايين اليهود إلى المحرقة «مثل الخراف إلى المذبحة» ضمير النازي؟ يمكن القول إنهم لم يذهبوا مبتسمين مبتهجين - إذ كان لا عنفهم «لاعنف الضعيف»- لكن إذا كان النازيون يستطيعون أن يبرروا أخلاقياً إبادة مليون طفل يهودي - من عساه تكون براءة وسائله وغاياته أنقى؟- فمن المحتمل أنه كان سيبرر أيضاً تضحية اليهود بأنفسهم طواعية ودون حقد.

ولفهم مذهب غاندي في ساتياغراها أو لاستخلاص صميم عقلانيتها، بأي درجة من الدرجات، ينبغي التمييز أيضاً بين مختلف أحداث وأبطال «مسارحها». وأحياناً، مثلاً عندما يجنح عارف بأسرار معبد غاندي، كان يزيد من إضراباته عن الطعام على المذنب الفعلي، إضرابات مُصمَّمة لإصلاحه. وكانت فعاليتها تعتمد على وجود روابط أخلاقية وعاطفية بين المذنب و«المكفر» المضرب عن الطعام. ويعدل المذنب تصرفاته بسبب إحساس حقيقي بارتكاب الخطأ، وفي الآن نفسه الحرص على المكفر المحبوب الذي يعانى⁽²⁾.

(1) EW, p. 357 (التأكيد من المؤلف).

(2) في حالة مثل هذه الإضرابات «الشخصية» عن الطعام، يُحدّد غاندي عدّة شروط مسبقة لنجاحها: (أولاً) يجب أن تكون هناك روابط عاطفية بين المسيء والمضرب عن الطعام، وإلا فإن المسيء سيُشعر بأن صيام المضرب عن الطعام «قوة غاشمة» و«شكل من أشكال الإكراه»، وليس شيئاً متولداً من الحب؛ (ثانياً) لا يجوز إلا لشخص

وفي مناسبات أخرى، كان غاندي يقذف بإضراباته عن الطعام في وجه جمهور متعاطف بهدف استثارتها. ويتوقف نجاح هذه المعاناة الذاتية بدرجة أقل على الروابط العاطفية الحميمة، أي «الحب» لشخص غاندي، من توقيفه على توافق آراء أخلاقي واسع، أي الظلم الظاهر في الوضع الذي دفعه إلى الإضراب عن الطعام. فالمكان في هذا المثال ليس خاصاً، وإنما هو مكان عام، والمستهدف من الإضراب عن الطعام بالتبعية ليس هو المسيء، وإنما المتفرّج.

ويخيم التشوُّش عندما يخلط غاندي بين إصلاح مسيء حميم وإصلاح خصم سياسي لدود. عندما يكون التحاب يربط بين المضرّب عن الطعام والمسيء، فإن المعاناة الذاتية للأول قد توقظ الثاني. فكم استعداد توجُّع الأممات اليهوديات من ابن صعب المراس إلى الجادة. لكن زعم غاندي أن تعذيبه لذاته يمكن أن «يُذيب» قلب هتلر أمر يتعذر تصديقه.

ولا ريب أن أساس مذهب غاندي هو أن مشاعر الحبّ والمشارك الإنساني يجمعان بين هتلر وضحاياها. لكن حتى وإن كان محقاً، وحتى لو كان ممكناً، في أبعد الاحتمالات، إيقاظ هذه المشاعر من سباتها، فهل يعقل أصلاً أن تنجو من شياطين هتلر؟ سيكون شاقاً للغاية على المرء أن يجيب عن هذا السؤال بالإيجاب. ففعالية المعاناة الذاتية التكفيرية في

عانى معاناة مباشرة بسبب المسيء أن يدعي واجب فرض المعاناة الذاتية على نفسه؛ (ثالثاً) يجب ألا يحصل من يفعل ذلك على منفعة شخصية من إصلاح المسيء، وإلا يصبح نوعاً من الابتزاز: (رابعاً) يجب أن يكون الفعل المسيء المحتج عليه بالمعاناة الذاتية لا ليس فيه أخلاقياً؛ «لا يجب أن يكون هناك أي مجال للشك فيما يتعلق بالخطأ... يجب أن تكون الإساءة أمراً يُسلم المجتمع بأنه إساءة»، وإلا فإنه «ليس معاناة ذاتية، بل إكراهاً» (CW، v. 50, pp. 193-97). قد يبدو، للوهلة الأولى ودون قول المزيد، أن إقدام شخص محبوب للمرء على الإضراب عن الطعام، إذا وفقط إذا كان لتصحيح خلل أخلاقي لا لبس فيه، قد يبدو للمسيء إكراهاً مع ذلك، وإذا تعرّض المضرّب لخسارة مباشرة بسبب سلوك المسيء، فإن إصلاح المسيء سيكون مكسباً مباشراً للمضرّب، وبالتالي شكلاً من أشكال الابتزاز.

إصلاح المسيء تتراجع كلما سدر المسيء في غيه. فقد تفعل فعلها مع عناد فرد من العائلة أو صديق، ولكن ليس مع أحد مواطنيك المجهولين أو عضو بعيد من الجنس البشري. وإذا كان المسيء مقتنعًا بدوره أنه على حق ويواجه خسارة مادية إذا ظهر أنه على خطأ، فمن شبه المؤكد أن المعاناة الذاتية لن تحرّك فيه ساكنًا، وإن كانت نقية وشديدة.

وباختصار، يتعدّر التصديق بأنه لو كانت المجموعات التي استهدفها هتلر بالإبادة قد مارست المقاومة دون إكراه أو عنف، لكان ذلك استحثّ ضميره وأذاب قلبه. ولربما كانت استراتيجيات غاندي الوحيدة التي لها فعالية ضد هتلر هي عدم التعاون على نطاق جماهيري، وتعبئة الرأي العام المتعاطف من خلال المعاناة الذاتية، وذلك ليس من أجل العزف على أوتار قلبه، وإنما لهزيمته سياسيًا.

والاستثناءات لهذه القاعدة مُتصوّرة أكثر منها حقيقة. صحيح أنه يمكن لغاندي أن يوجّه إضرابه عن الطعام ضد مسؤول بريطاني مُستبد لا يعرفه إلا من بعيد وبصفة رسمية، لكن ثبت أن المسؤول متفاعل. وإذا لآنّ جانب المسؤول، فليس حبًا في غاندي أو لأنّ إضراب غاندي عن الطعام أحيانًا ضميره، ولكن من شبه المؤكد لأنّ إضراب غاندي عن الطعام هدّد بإيقاظ «الضمير الميت» للجمهور المتعاطف، ومن ثمّ عزله سياسيًا.

ويمكن لإضراب غاندي عن الطعام حتى الموت أيضًا أن يحرك ملايين الهندوس والمسلمين المجهولين نحو الكفّ عن الإبادة الطائفية. بيد أنه لم يكن الارتباط العاطفي في حدّ ذاته هو ما ردهم. ولا كان استيقاظ الحبّ لـ«الآخر» -أي الاعتراف المتبادل من الهندوس والمسلمين باشتراكهم في

الإنسانية- والإدراك الذاتي لكون الكراهية الطائفية أمرًا خاطئًا.

وإذا كان الهنود توقفوا مؤقتًا عن ذبح بعضهم البعض، فقد كان ذلك لتوصلهم بحسبهم المشترك بأن المهاتما يمثل، بعد انتهاء كلِّ قول وفعل، أسمى وأفضل ما فيهم، وقد نال من خلال حياة من التفاني الناصر للذات في الخدمة العامة حقًا في طاعتهم. لقد كان دورًا نحتته غاندي لنفسه بصورة فريدة. فوحده إضراب عن الطعام يباشره غاندي يمكنه أن يخمد نار الكراهية بين الأشقاء التي وصلت إلى نوبة من الجنون.

وقد تدفع المعاناة الذاتية محبوبًا إلى إصلاح تصرُّفاته. كما قد توظف ضمير جمهور يقف سلبياً أمام الظلم من دونها. ولكنها لن تردع، كقاعدة عامة، أشخاصًا يدفعهم غضب ورع ويدافعون عن مصالح مُتصوِّرة. ووحده شخص في قامة غاندي يمتلك مثل هذه القوة الروحية التي لا تقاوم. لقد عاشت وماتت مع شخصه. لقد كانت انتصاره الشخصي الكبير، ولكن أيضًا فشله السياسي الكبير. فالتكتيك غير قابل للتعميم.



غاندي ينزل من قطار (1940)

الفصل الرابع

رجل الشعب

كيف تبدو ساتياغراها أثناء العمل؟

سأدرس التدخّلات السياسية الرئيسية لغاندي خلال الفترة (1930-1947)، عندما تعرّضت أفكاره لأقصى الاختبارات.

التمييز والفجور

أطلق غاندي حملات ساتياغراها لإصلاح المجتمع الهندي على أساس أن أغلبية حقيقية أو كامنة من الهنود كانت تدعم برنامجه الاجتماعي. ولم يكن هدف كل حملة هو إيجاد جمهور من العدم، وإنما استحثاث ضمير الشعب عن طريق المعاناة الذاتية على أساس إجماع موجود سلفاً أو في بدايته. فقد كان يهدف إلى «زرع وترسيخ رأي» جمهوره الموجود سلفاً،

وبالتالي استثمار «قوة الرأي العام» بإيقاظه من سباته و«رفعه» إلى مرتبة «الشعور... بالواجب»⁽¹⁾.

ولم يكن الجمهور المُستهدف من حملات غاندي هم المعارضون العنيّدون للإصلاح، وإنما أنصاره الفعليّون أو المحتمّلون الذين كان يرغب في استدراجهم إلى التحرُّك. وأعلن في إحدى هذه المناسبات أن «الإضراب الوشيك عن الطعام موجّه ضد مَنْ يؤمنون بي»:

ولذلك، فإنّه ليس ضد العالم الإنجليزي الرسمي، وإنما ضد أولئك الرجال والنساء الإنجليزيّين الذين يؤمنون بي وبعادلة القضيّة التي أمثلها، بالرغم من تعاليم العالم الرسمي المناقضة. ولا هو ضد مصالح أبناء بلديّ الذين لا ثقة لهم بي، سواء كانوا من الهندوس أو غيرهم؛ وإنما هو ضد أولئك الهنود الذين لا يعدون ولا يحصون... الذين يعتقدون أنني أمثل قضيّة عادلة. وفوق كلّ ذلك، هو يهدف إلى خنز الضمير الهندوسي ليتحرَّك التحرُّك الدينيّ الصحيح⁽²⁾.

وهنا من جديد: «ما على تعذيبي لذاتي أن يقوم به هو استحثاث ضمير من يعرفونني ويؤمنون بحسن طويتي» ومَنْ «أدركوا أنني صديقهم»⁽³⁾.

وهكذا، بالعمل على إزالة «وصمة» النبذ من خلال فتح أبواب المعابد

(1) CW, v. 51, p. 118 (“rous[ing]”, “duty”), CW, v. 53, p. 164 (“cultivating”), CW, v. 67, p. 350 (“force”).

(2) CW, v. 51, p. 62.

(3) CW, v. 86, pp. 82 (“bona fi des”), 126 (“friend”).

الهندوسية لهاريجان («أبناء الله»)⁽¹⁾، افترض غاندي أن أغلبية الهندوس تدعم مثل هذا الإصلاح: «الجمهور نفسه مستعد لذلك». فالغرض من ساتياغراها هو إقناع الغالبية الهندوسية بالتحرك إلى ما قد بدأت تعتبره حقاً: «إنني أرى أن عقل الأغلبية مع هذا الإصلاح إذا أتى خلسة. لذا، على المصلحين إعداد الأرضية حالياً دون توقف، وأن يقوموا بصورة متيقظة بتحويل الموقف السلبي تجاه الإصلاح إلى موافقة فاعلة عليه»؛ و«الإضراب عن الطعام، إذا كان له أن يأتي، لن يكون القصد منه إكراه من يعارضون الإصلاح، لكن سيكون القصد منه همز من كانوا رفاقي أو تعهدوا بإزالة النبذ لكي يتحركوا... ولذلك يجب ألا يؤثر إضرابي عن الطعام في معارضي الإصلاح، ولا حتى الزملاء العمال والملايين الذين دفعوني إلى الاعتقاد بأنهم معي والكونغرس في الحملة ضد النبذ، إذا كان هذا الأخير قد خلص بعد إعادة التفكير إلى أن النبذ ليس في نهاية المطاف جريمة ضد الله والإنسانية»؛ و«أن فكرة إضرابي عن الطعام برمتها تقوم على الاعتقاد بأن قسماً كبيراً من الناس يفضلون دخول المعبد، لكنهم لا يعبرون عن ذلك»⁽²⁾.

وفي إطلاق حملة تخليص الهند من آفة الإدمان على الكحول، راهن غاندي أيضاً على الاعتقاد بأنه يمكن توحيد «الرأي العام» حول مثل

(1) أُقترح نحث هذه الكلمة على غاندي من المنبوذين، ثم تبناها (CW, v. 82, p. 423, CW, v. 83, pp. 36, 365-66). وفي الاستخدام الراهن، يُشار إلى المنبوذين بعبارة ملائمة على أنهم داليت.

(2) CW, v. 51, pp. 126 ("stealthily"), 342 ("sting"), 344 ("ready"), 386, CW, v. 53, pp. 2, 7, 493 ("whole").

لكن عندما تحوّلت إحدى حملات غاندي المبكرة ضد النبذ إلى حملة وحشية ودموية، أعلن «فقدان حتى بضع مئات من الأرواح لن يكون ثمناً كبيراً جداً لحريّة المنبوذين». الشهداء وحدهم من يجب أن يموتوا نظيفين» (NR, p. 187).

هذا الإصلاح⁽¹⁾. وعند تحدّي غاندي لماذا لم يشنّ أيضاً حملات لتخليص الهند من أشكال انغماس أخرى تحط من قدرها مثل القمار، والتدخين، والسينما، ردّ بصراحة: «أن شرّ شرب الخمر قد أدركه أهل هذه الأرض بهذه الصفة، ولكن الشرور الأخرى هي بصورة أو أخرى من أمور الموضة»؛ و«التدخين قد بلغ درجة من الاحترام تنذر بالخطر. وعندما تصل رذيلة تلك المرتبة، يصبح من الصعب استئصالها»؛ و«تلك الرذائل أصبحت موضة، وبالتالي لم يكن بالإمكان التعامل معها مثل محظورات. وأزعم أنني مصلح عملي. فأنا أعرف غريزيًا تقريبًا ما الرذائل التي حلّ وقت التصدي لها علنًا»⁽²⁾.

وبعبارة أخرى، لا يمكن لأي قدر من المعاناة الذاتية أن يدفع الجماهير للتحرك ضد رذيلة لم تستنكرها سلفًا. وما دام الأمر كذلك، رفض غاندي إهدار وقت ثمين على انحرافات لا يرفضها الجمهور سلفًا: «أنا لن أناقش أي مسألة لا يبدو أنها ذات أهمية مباشرة ويوجد بشأنها أدنى مجال للشك»⁽³⁾.

ومن المؤكّد أن غاندي ادّعى أيضًا أن من شأن المعاناة الذاتية أن «تسقط في نهاية المطاف جدار تحامل» من يعارضون إصلاحاته الاجتماعية بعنف: «أقسى القلوب وأفدح الجهالات»، و«أصلب قلوب أكثر المتعصبين تحجّرًا»⁽⁴⁾. كما تنبأ بأن «تذيب قلوب» من يستفيدون من الرذيلة⁽⁵⁾، لكن

(1) CW, v. 43, p. 137.

(2) CW, v. 42, p. 373, CW, v. 48, pp. 9, 107, CW, v. 70, pp. 106 (“drink”), 224 (“ripe”), CW, v. 85, pp. 451-52 (“Smoking”).

(3) CW, v. 50, p. 289.

(4) NR, pp. 189 (“break”), 190 (“hardest”), 197 (“stoniest”).

(5) CW, v. 43, p. 220 (“melt”).

من الواضح أن قوة دفع حملاته هي تنشيط جمهور متعاطف خفية عبر المعاناة الذاتية، والاستفادة من «قوة نفور الجمهور» هذه من أجل السيادة ديموقراطيًا على المتصلبين، أو عزلهم اجتماعيًا، أو إجبارهم على الاستسلام، أو التوصل إلى تسوية مبدئية معهم⁽¹⁾.

عدم المساواة والاستغلال

يُقدّم غاندي نفسه على أنه صوت «ملايين البسطاء» من فقراء الهند: «أقول من دون تردّد إنني رجل الشعب. وفي كلّ لحظة من حياتي، لدي شعور تجاه ملايين الجائعين. إنني أعيش من أجل التخفيف من معاناتهم ومآسيهم، وأنا مستعد لدفع روعي من أجل ذلك». وعندما سُئلَ غاندي لماذا لا يستخدم «حشية سميكة»، ويسافر دائمًا في الدرجة الثالثة في القطار، أجاب: «أفعل كلّ ما يمكنني لأدوب في ملايين فقراء في الهند»⁽²⁾.

لقد وضع غاندي تصوّر «سواراج» كشيء أكثر بكثير من الاستقلال السياسي، أو ما كان يُطلق عليه بازدراف «مجرد نقل للسلطة». وسعى إلى «الخلاص الكامل لملايين الكادحين، لكن الجائعين في الوقت نفسه من الشر الرهيب للعبودية الاقتصادية» و«استقلال الأفقر والأدنى في الأرض». وصرح بأنه «ما لم يمح الفقر والبطالة من الهند»، «فلن أوافق على القول

(1) CW, v. 67, p. 284 (“opprobrium”).

في قضية دخول المعبد، كان غاندي يتكبد الآلام للتأكيد أن من الضروري «استيعاب الأقلية» التي تعارض مثل هذا الإصلاح، لأن «التسامح المتبادل هو قانون الأسرة البشرية» (8-6، 3-2، CW, v. 53, pp. 2-3). واقترح منح الأصوليين الهندوس ساعات أو مساحات محدودة للصلاة في المعابد من دون أن يكون هناك أي منبوذين.

(2) CW, v. 80, p. 425.

بأننا قد وصلنا إلى الحرّية»⁽¹⁾.

وكان غاندي يطمح، فيما وراء افتداء الهند، كذلك إلى «تخليص ما يُسمّى بأضعف أعراق الأرض من الحذاء المهشم للعظام للاستغلال الغربي الذي تُعدّ إنجلترا أكبر شريك فيه». وأعرب عن «أمله» أن يكون نضال الهند «مجرد جزء من النضال العام للشعوب المستعمرة ضد الرأسمالية والإمبريالية العالمية، وأن تكون الهند طليعة حركة عالمية لجماهير المُستعمرين والمزارعين نحو الحرّية، الاقتصادية والسياسية»⁽²⁾.

واعتمد غاندي، بناءً على معتقداته الشخصية وفقّر الهند المدقع، نظاماً مُتقشفاً إزاء ما لا يعدو أن يكون مكافأة عادلة في مجتمع منظمّ تنظيمياً جيداً: «إن شيئاً غير مسروق في الأصل يجب أن يُصنّف مع ذلك مسروقاً إذا كنا نمتلكه دون أن نكون في حاجة إليه»؛ و«كل مَنْ يمتلك أكثر من الحد الأدنى الضروري حقاً هو بالنسبة لي مذنب بالسرقة»؛ و«أن يعيش المرء فوق الإمكانيات التي تناسب بلدًا فقيراً معناه أن يعيش على غذاء مسروق»؛ و«يجب أن يكون لكل شخص المال الكافي لتلبية جميع احتياجاته الطبيعية لا أكثر»؛ و«أيمّا غني، ذو مال، اكتسب غناه بالاستغلال أو وسائل أخرى مشكوك فيها، ليس أقلّ ذنباً بالسرقة من السارق الذي ينتشل من جيب أو يقتحم منزلاً ويرتكب السرقة. الفارق الوحيد أن الأول اختبأ خلف واجهة من الاحترام وأفلت من عقوبة القانون»⁽³⁾.

(1) CW, v. 73, pp. 279 (“dreadful”), 336 (“poorest”), CW, v. 87, p. 452 (“wiped out”).

(2) EW, p. 153 (“deliver”), CW, v. 78, p. 251 (“general”).

(3) CW, v. 43, p. 148 (“befitting”), CW, v. 44, p. 103 (“classified”), CW, v. 50, p. 213 (“appropriates”), CW, v. 72, p. 399 (“wherewithal”), CW, v. 85, pp. 114–15 (“exploitation”).

للاطلاع على معيار غاندي الصارم المتمثل في «عدم السرقة» (asteya)، قارن مع 90–91 CW, v. 44.

وللقضاء على العنف والجريمة، وفقاً لغاندي، يجب القضاء أيضاً «على عدم المساواة القاسية التي تسيطر على الحاضر»⁽¹⁾: إذ «من الواضح استحالة قيام نظام حكومة لاعنفي طالما بقيت الهوة الواسعة بين الأغنياء وملايين الجياع قائمة»؛ و«لم يسبق أن أشار أحد في أي وقت مضى إلى أن العوز الطاحن يمكن أن يؤدي إلى أي شيء آخر عدا التدهور الأخلاقي»⁽²⁾.

ومع ذلك، رفض غاندي الطلب التقليدي ليسار الهندي بالصادرة القسرية لأملك ذوي الملكيات الكبرى وتأميم وسائل الإنتاج. وبدلاً من ذلك، دافع عن «نظرية الوصاية»، التي ترى أن الطبقة المالكة ستغويها المقاومة اللاعنافية باستعمال «فائض» الثروة لتحسين أوضاع المجتمع: «لا أعتقد أن الرأسماليين والمُلاك كلهم استغلاليون بموجب حاجة متأصلة، أو أن هناك تناقضاً جوهرياً بين مصالحهم ومصالح الجماهير، أو أنه لا مجال للتوفيق بينها»⁽³⁾.

وليس المجال هنا مجال الموازنة بين مزايا أو عيوب مخطط الوصاية الغاندي⁽⁴⁾. كما سأترك جانباً تبعية غاندي المالية للرأسماليين الهنود

(1) CW, v. 72, p. 381.

(2) CW, v. 75, p. 158 (“gulf”), EW, p. 86 (“pauperism”).

(3) CW, v. 42, pp. 308-9, CW, v. 58, pp. 217-18 (“inherent”), CW, v. 61, p. 183 (“excess”).

(4) في الواقع، تصوّر غاندي الرأسمالية كنظام للاستغلال، ويقدر ما كان يعارض الاستغلال، كان هدفه النهائي قريباً من هدف اليسار الهندي التقليدي. وهكذا نصح المُلاك الذين «يواجهون في شواغلهم الدمار الذي يحدثه المضرِبون»:

أصبح دون تردّد أرباب العمل هؤلاء أن يعرضوا على المضرِبين دفعة واحدة السيطرة الكاملة على الشواغل التي هي شواغل المضرِبين أيضاً بالدرجة نفسها. ولن يخلوا أماكن عملهم مستشيطين غضباً، وإنما لأنه الموقف الصحيح، ولإظهار حسن نيتهم سيعرضون على العمال مساعدة مهندسيهم وغيرهم من الموظفين المهرة. وسيجد أرباب العمل في النهاية أنهم لن يخسروا شيئاً. وفي الواقع، سينزع تصرّفهم الصحيح سلاح المعارضة، وسيكتسبون مباركة رجالهم. وسيكونون قد استخدموا رأسمالهم الاستخدام الملائم. ولن أعتبر مثل هذا الإجراء إجراءً إحسانياً. وسيكون استخداماً ذكياً من الرأسماليين لمواردهم، وتعاملاً زهياً فيما يتعلق بالعمال الذين سيكونون قد حوّلهم إلى شركاء محترمين. (CW, v. 83, p. 309).

الذين كان يحميهم من النعمة الشعبية⁽¹⁾. وإنما داعي قلقي بدلاً من ذلك هو الطابع العملي للوسائل التي يقترحها لتحقيق هدف وصايتها.

وتنبأ غاندي أحياناً بأن من شأن تضحية وحنان العمال أن تحوّل الملّك من مُستغِلين لا يرحمون إلى حُماة مستنيرين لميراث الأُمَّة. إذ سينتهي الأمر بالأغنياء إلى أن يلاحظوا الإيماءات «اللطيفة» أن عليهم ألا «يبددوا أرباح [هم] في معيشة باذخة ومسرفة، وإنما يجب استخدامها» من أجل الفقراء: «أريد أن أوقظ، عن طريق المعاناة، شعورهم بالواجب، أريد أن أذيب قلوبهم وأحملهم على إنصاف إخوانهم الأقلّ حظاً. فهم بشر ولن يذهب ندائي إليهم سدى»، و«إذا تعاملنا مع هؤلاء الأغنياء بلباقة، فسيكونون عند التطلعات التي نعقدها عليهم»؛ و«إذا ظفرنا بثقتهم وطمانأهم، فسنجد أنهم لا ينفرون من تقاسم ثرواتهم تدريجياً مع الجماهير»؛ و«ينبغي لنا النضال ضدّهم بالطريقة نفسها وللسبب نفسه، وبالقدر نفسه من المحبة وكرهية المواجهة، وكذا بالقدر نفسه من الاحترام والأدب الذي نناضل بهما ضدّ قرابتنا من الدم»⁽²⁾.

وانظر أيضاً:

CW, v. 42, pp. 275–76, CW, v. 58, pp. 29, 247, CW, v. 67, p. 352, CW, v. 86, pp. 413, 423. كما اعتنق غاندي مُثُل الشيوعية «لكل حسب حاجته» و«المجتمع الخالي من الطبقات»، ووصف نفسه بأنه اشتراكي و«شيوعي» (CW, v. 85, p. 5, CW, v. 84, p. 26, 102, CW, v. 83, pp. 298–99, CW, v. 45, pp. 261–63, 282–83, CW, v. 88, pp. 14–18, 131–32, CW, v. 88, pp. 7–8, CW, v. 88, pp. 261–63, 282–83, CW, v. 89, p. 406 للاطلاع على انتقاداته اللاذعة في بعض الأحيان لتكنيكات اليسار الهندي المرتبط بالأحزاب). ومن ناحية أخرى، حدّر غاندي، محقّقاً، من مخاطر التأميم على يد دولة «بلا روح» تحسّد «العنف في شكل مركز ومنظم» (CW, v. 27, p. 183, CW, v. 83, p. 27). (CW, v. 59, pp. 318–20; see also CW, v. 61, p. 183, CW, v. 83, p. 27).

(1) انظر CW, v. 78, p. 248. حيث يدعي ناقد صديق لغاندي أن الدعم الذي يحصل عليه من أثرياء الهند «يحول دون الإصلاح الجذري»، وCW, v. 84, p. 247، حيث يدافع غاندي عن نفسه، «بالطبع الرأسماليون من بين أصدقائي وأشعر بالفخر لكونهم يقبلونني صديقاً، لكنني أواجههم عندما أشعر أن ثمة حاجة لذلك، ولا أحد يواجههم بصورة أقوى. لقد واجهت مُلاك المطاحن كما لم يفعل أحد، وواجهتهم بنجاح على ما أفترض».

(2) CW, v. 45, p. 299 (“awaken”), CW, v. 58, pp. 151–52 (“decency”), 218 (“kind,” “ease”), 247 (“squander”), CW, v. 63, p. 404 (“blood–relations”).

وتمامًا مثلما كان غاندي يُشير بين الفينة والأخرى إلى أن البريطانيين لن يوافقوا على استقلال الهند إلا إذا جرى تبديد خوفهم وتوجسهم اللاعقلانيين، لذلك أشار إلى أن الأثرياء لن يتوقفوا عن استغلال الفقراء إلا إذا أمكن تبديد «خوف [هم] وعدم ثقت [هم]»⁽³⁾.

بيد أنه عند الضغط على غاندي بشكل أقوى، أقرّ بأنه لا يستطيع أن يُشير ولو إلى سابقة واحدة لاعتقاده بأن من شأن المعاناة الذاتية والحبّ أن يُحوّلًا رأسماليين جشعين إلى أمناء خيّرين، ولذلك تمثل طريقة عمله قفزة عملاقة تقوم على الإيمان⁽⁴⁾. وفي الواقع، وليس الرأسماليون مقتنعين -ولا تعوزهم أدلة خاصة بهم- بأن النظام عادل، يكافئ القلّة المغامرة ويعاقب الكثرة الكسلانة؟

لكن غاندي حضّ أيضًا الطبقة العاملة على التنظيم والتعبئة -وهذا يعني أن تدرك قوتها الكامنة وقدرتها على الإكراه- إذا أرادت أن يوزع أصحاب الأملاك بإنصاف ما اكتسبوه بطرق ملتوية: «يدرك العامل على الفور قوته، فهو في وضع يمكنه من أن يصبح شريكًا في الأسهم مع الرأسمالي بدلًا من أن يظلّ عبدًا له»؛ و«ما يجب عليك القيام به هو أن تثبت للرأسماليين قوة الأجراء وأنهم لن يقبلوا أن يكونوا أمناء لمن يكدحون لهم»؛ و«ما هو ضروري هو أنه يجب على الأجراء أو العمال أن يعرفوا حقوقهم، وينبغي

(3) CW, v. 55, pp. 427-28.

(4) انظر على سبيل المثال CW, v. 69, p. 219.

قد يطرح سؤال عن عدد الأمناء من هذا النوع الذين يمكن للمرء أن يعثر عليهم حقًا. وفي الواقع، ينبغي ألا يطرح مثل هذا السؤال على الإطلاق. فليست له علاقة مباشرة بنظريتنا. قد يكون هناك أهل ثقة وحيد فقط من هذا القبيل أو قد لا يكون هناك أحد على الإطلاق. لماذا يجب علينا أن نخلق حيال ذلك؟ يجب أن نكون مؤمنين بأنه يمكننا، دون عنف أو عنف قليل لا يكاد يُسمّى عنفًا، أن نخلق مثل هذا الشعور في أوساط الأغنياء. وينبغي أن نتصرّف بذلك الإيمان.

وانظر أيضًا CW, v. 45, p. 328, CW, v. 71, p. 28, CW, v. 72, p. 400.

أن يعرفوا أيضًا كيفية المطالبة بها؛ و«عندما يكون العمال أفضل تنظيمًا وأكثر تضحية بالنفس، تنمو قوتهم. فأنت لا تكون مدرّكًا لقوتك وبالتالي فأنت مظلوم»؛ و«ما إن يتلقّى الأجراء التعليم الصحيح وينظموا التنظيم المناسب ويدركوا قوتهم، لن يستطيع أي قدر من رأس المال أن يخضعهم. ويمكن للأجراء المنظمين والمستنيرين أن يُملوا شروطهم»؛ و«الرأسماليون هم في نهاية المطاف قلةٌ عديدة. والعمال كثيرون. لكن رأس المال منظم تنظيمًا جيدًا وتعلم كيف يتضام. وإذا أدرك الأجراء قوتهم الكامنة وسرّ التّضام، فسيحكمون رأس المال بدل أن يحكمهم»؛ و(هناك في اللغة الإنجليزية كلمة قوية جدًا، وهي موجودة في كلّ اللغات: «لا». والسّر هو أنه عندما يريد رأس المال أن يقول «نعم»، يهدر الأجراء (لا). وبعدها على الفور يدرك الأجراء أن لديهم خيار قول «لا» عندما يريدون قول «لا»، فليس هناك ما يخشونه، ولا يهيم البتة أن رأس المال لديه البنادق والغازات السامة تحت تصرّفه. فسيبقى رأس المال عاجزًا تمامًا إذا أكّد الأجراء كرامتهم باستخدام (لائه)، استخدامًا جيدًا. عندها لا يحتاج الأجراء إلى الانتقام، وإنما سيقفون متحدين يتلقون الرصاص والغازات السامة ويصرون مع ذلك على «لائهم»؛ و«الفلاح، سواء كان أجيرًا لا يملك أرضًا أو مالكًا كادحًا، يأتي أولاً. فهو ابن التراب الذي يعود أو يجب أن يعود إليه بحق، وليس إلى المالك الغائب... عليه أن يعمل بحيث يجعل من المستحيل على المالك استغلاله. وأوثق أشكال التعاون بين الفلاحين ضروري جدًا»⁽¹⁾.

(1) CW, v. 45, pp. 339 ("Immediately"), 354 ("demonstrate"), CW, v. 48, p. 418 ("potent"), CW, v. 58, pp. 36 ("necessary"), 75-76 ("necessary"), 121-22 ("self-sacrificing"), CW, v. 59, p. 140, CW, v. 60, p. 254 ("educated"), CW, v. 67, p. 135, CW, v. 78, pp. 219-21 ("peasant"), CW, v. 82, p. 267 ("few").

وإذا لم تقنع النداءات الأخلاقية الصناعيين والملّك الهنود بأن «يصبحوا أولياء للفقراء بالمعنى الحقيقي للكلمة، وكان هؤلاء الأخيرون أكثر وأكثر انسحاقاً ويموتون من الجوع»، يدعو غاندي عندها إلى «عدم التعاون اللاعنفي والعصيان المدني باعتباره الوسيلة الصحيحة، والتي لا تخطئ»⁽¹⁾. وفي الواقع، حذّر من يملكون من أنهم ما لم يتخلوا عمّا اكتسبوه بغير وجه حق فستأتي الفوضى: «لا يوجد خيار آخر سوى بين التخلي الطوعي من جانب الرأسمالي عن التفاهات وما يستتبعه من حصول على السعادة الحقيقية للجميع، من ناحية، ومن ناحية أخرى، الفوضى التي يُوشك ملايين الجوعى، إذا لم يستيقظ الرأسمالي قبل فوات الأوان، أو استيقظ، لكنه كان جاهلاً، أن يغرقوا فيها البلاد، والتي لا تستطيع أن تحول دونها حتى القوة المسلّحة التي تستطيع حكومة قوية أن تزج بها في الميدان»⁽²⁾.

ومع ذلك، نبذ غاندي رسمياً «ما يُسمّى صراع الطبقات»⁽³⁾، ناصحاً بدلاً من ذلك أن «يُقنّع ويحوّل... الملّك والرأسماليون»⁽⁴⁾، وكثيراً ما أعرب عن ازدرائه لإضرابات العمال⁽⁵⁾. ويمكنه أن يتعامى بعناد عن الحقيقة

(1) CW, v. 72, p. 401.

(2) CW, v. 42, p. 240.

(3) إضافة إلى معارضة الصراع الطبقي لما يستتبعه من عنف، يعتقد غاندي أيضاً أن الرأسماليين يملكون مواهب لا غنى عنها، ولا يمكن للطبقة العاملة الحصول عليها من دونهم (p. 63, CW, v. 45, p. 339, CW, v. 87, p. 284, CW, v. 72, p. 400, CW, v. 87, p. 284). وقد رفض بطريقة ديماغوجية إلى حدّ ما الصراع الطبقي بأنه «شعار» و«رمز»... «مستورد من الغرب» وغريب على «التقاليد الشرقية» (248, 219, CW, v. 58, pp. 219, 248); لكن قارن مع 46, p. 62, CW, v. 62, حيث يقول، «المراسل مخطئ في إيحائه بأنني لا أعتقد بوجود الصراع الطبقي. ما لا أعتقد بوجوده هو ضرورة إثارته وإبقائه متقدّماً. وما زلت أعتقد على نحو متزايد أنه من الممكن تماماً تجنبه».

(4) CW, v. 58, p. 29.

(5) انظر 42, p. 263, CW, v. 42, p. 263, CW, v. 85, pp. 328-29, CW, v. 87, pp. 451-52, CW, v. 88, pp. 435-37, CW, v. 90, p. 495؛ ولكن قارن مع 58, CW, v. 42, p. 58.

حيث يشيد بالإضرابات باعتبارها «سلاحاً جيداً في أيدي العمال لإزالة مظالم حقيقية».

الساطعة بأن وصفته العملية لإلغاء الاستغلال وعدم المساواة تعتمد في نهاية المطاف، ليس على محاسن المعاناة الذاتية، وإنما على إكراه القوة الخام (وإن كانت لاعنفيّة)⁽¹⁾.

العدوان والاحتلال

أثناء الحرب العالمية الثانية، استحضر غاندي سيناريوهات متكاملة أحياناً ومتناقضة أحياناً أخرى لهزيمة عدوان المحور دونما عنف. وبدا كما لو كان يجهد نفسه بكل ما أوتي من قوة ويرتجل لإثبات جدوى وأهمية ساتياغراها في مواجهة آخر تحدّياتها.

عدم التعاون: كان تخمين غاندي أن قوات المحور ما إن تلاحظ أنها لا تستطيع استغلال الأراضي التي تغزوها من دون تعاون السكان المحتلّة أراضيهم، فإنها ستنسحب: ففي مواجهة «التحدّي الهادئ والكريم واللاعنفي»، فإن «الطاغية لن يرى جدوى الاستمرار في إرهابه»، و«سيضطر بالتأكيد إلى الانسحاب». وأياً يكن ما يبشر به غاندي رسمياً، من الواضح أن هذا التكتيك لم يتوجّه إلى ضمائر أو قلوب الغزاة، وإنما لدفاتر حساباتهم، أي مصالحهم المادية⁽²⁾. وفي أحد بدائل هذا السيناريو، خلص غاندي إلى أن عدم التعاون لن يؤدي إلى الذبح الجماعي، لأن هتلر

(1) لكن انظر CW, v. 84, pp. 8-9, 102-3, 336 حيث يُدين غاندي إضراباً للكناسين، لأنه لجأ إلى «الإكراه». (2) CW, v. 62, p. 29, CW, v. 67, p. 76 ("dignified," "retire"), CW, v. 68, p. 204 ("terrorism"), CW, v. 72, p. 188 لكن قارن مع CW, v. 68, pp. 137-41، حيث يزعم غاندي أنه لو كان البولنديون وضعوا أسلحتهم، لكانت «الطبيعة الأساسية» للقوات النازية والسوفييتية الغازية «جعلتهم يكفون عن المذابح الجماعية للأبرياء».

لم يكن يريد استغلال الإمبراطورية البريطانية، وإنما سعى إلى قهرها -لحملها على «الاعتراف بالهزيمة»- ونتيجة لذلك، إذا حُرِمَ منبه الأدرينالين الذي يمنحه الصيد، فـ«سيعوزه الحماس لقتلك. لقد عاش كل صياد هذه التجربة. فما سمع أحد أبداً بشخص يصطاد أبقاراً»⁽¹⁾.

وإذا لم تنسحب قوة احتلال وارتكبت فظائع، في المراحل الأولى للحرب حسب تخمين غاندي، فإن عدد القتلى كان سيظلّ مع ذلك أقلّ لو كان السكان الأسرى مارسوا المقاومة اللاعنفية، وفي الوقت نفسه كانت أوروبا برمتها ستخرج من حمام الدم مفقداً روحياً:

تخيّل حالة أوروبا اليوم لو أن التشيكين والبولنديين والنرويجيين والفرنسيين والإنجليز قالوا جميعهم لهتلر: «أنت لا تحتاج أن تستعد علمياً للتدمير. سنواجه عنفك باللاعنف. وبالتالي ستكون قادراً على تدمير جيشنا اللاعنفى دون دبابات وبوارج حربية ومناطيد ذات محركات». ويمكن الردّ بأن الفرق الوحيد سيكون هو أن هتلر كان سيحصل دون قتال على ما حصل عليه بقتالٍ دام. بالتأكيد. كان تاريخ أوروبا سيكتب بطريقة مختلفة. وعندها ربما (و فقط ربما) كان سيجري وضع اليد عليها في ظلّ مقاومة لاعنفية، بينما أخذت الآن بعد ارتكاب فظائع لا تُوصف. وفي ظلّ اللاعنف، ما كان ليقتل إلا مَنْ دَرَبُوا أنفسهم على القتل، إذا لزم الأمر، ودون قتل أي شخص ودون حمل غلٍ

(1) CW, v. 68, p. 204, CW, v. 72, p. 383 ("defeat," "zest"), EW, p. 358.

لأبي شخص. وأجرؤ على القول إن أوروبا في هذه الحالة
كانت ستضيف عدّة بوصات لمكانتها الأخلاقية. وفي النهاية،
أتوقع أن القيمة الأخلاقية هي ما سيؤخذ في الحساب. فكل
ما سواها سَقَطٌ⁽¹⁾.

ولكن لو محت القوة الغازية السكان الأسرى غير المتعاونين، كانت تلك
النتيجة، وفقاً لغاندي، ستظلُّ أفضل من المقاومة العنيفة. وبالتالي
«ربما أريد التشيكيون بسبب عصيان الأوامر»، لكن «ذلك كان سيكون
نصراً مجيداً للتشيكيين». سيكونون قد حافظوا على سلامة «روحهم،
أي شرفهم». وكان ذلك سيشكل أيضاً إيذاناً بـ«بداية سقوط ألمانيا»،
لأن المعتدين -أو هكذا ربما كان يعتقد غاندي- قد يكونون قادرين على
ذبح الأبرياء مرّة واحدة، لكن «جيشاً يجرؤ على المرور فوق الجثث لن
يكون قادراً على تكرار تلك التجربة»⁽²⁾. وعلى نحو ذلك نصح مواطني
بلده، «إذا هاجم الفوهرر الهند»، وحتى ولو ذبح الهنود الذين يرفضون
التعاون بلا رحمة، مع ذلك، «سيدخل أتباع ساتياغراها الذين يواجهون
الجيش التاريخ أبطالاً وبطلات متساوين على الأقلّ مع مَنْ نتعلّم عنهم في
الحكايات أو التاريخ البارد»⁽³⁾.

المعاناة الذاتية: لكن ماذا لو لم تكن السلطة الغازية تبحث عن تعاون
السكان الواقعين في قبضتها، وإنما عن تشريدتهم وسلبهم أملاكهم، أو
إبادتهم التامة؟ قال غاندي، سيراً على إيمانه بفعالية المعاناة الذاتية أو

(1) CW, v. 62, p. 29, CW, v. 67, p. 415, CW, v. 72, p. 188 ("Imagine").

(2) CW, v. 48, p. 421 ("corpses"), CW, v. 67, p. 405 ("soul"), CW, v. 68, pp. 204-5
("annihilated," "glorious," "beginning").

(3) CW, v. 72, p. 230, CW, v. 73, p. 322 ("Führer").

الحبّ الفوار، بأن المقاومة اللاعنفية يمكن أن تردع طاغية مجنوناً وقاتلاً، لأن «الطبيعة البشرية في جوهرها واحدة، وبالتالي لا تتخلف عن الاستجابة لمفاتيح الحبّ»⁽¹⁾.

وفي مواجهة المتشككين والرافضين ردّ غاندي بعناد:

كمؤمن باللاعنف، لا أضع حدوداً لإمكاناته. فحتى الآن بنى [هتلر] وأمثاله على تجربتهم الثابتة بأن الرجال يذعنون للقوة. وسيكون الرجال والنساء والأطفال العزل الذين يمارسون المقاومة اللاعنفية دون أي شعور بالمرارة تجربة جديدة بالنسبة لهم. مَنْ يجرؤ على القول إنه ليس من طبيعتهم الرّد على القوات الأعلى والأحسن؟ فليهم الروح نفسها التي لديّ.

ولو أن اليهود... اعتمدوا اللاعنف الفاعل، أي الشعور بالعطف إزاء الألمان غير اليهود بصورة مقصودة، فلن يستطيعوا أن يُلحقوا أي ضرر بالألمان، وأنا متأكد تمامًا، تأكدي من إملأ هذه السطور، أن يذوب أصلب قلب ألماني.

ومن المعروف أن معاناة الشخص اللاعنف تُذيب أصلب القلوب. وأجازف بالقول لو استطاع اليهود أن يدعوا لنجدتهم قوة الروح التي لا تأتي إلا من اللاعنف، فسينحني هتلر أمام الشجاعة التي لم يجربها من قبل أبدًا.

(1) CW, v. 68, p. 205.

وأنا لست أياس من استجابة [هتلر] للمعاناة الإنسانية حتى ولو كان من تسبّب فيها. ولكن يجب أن أرفض التصديق بأن الألمان كأمة أناس لا قلب لهم، أو أنهم أقلّ من أمم الأرض الأخرى بشكلٍ ملحوظ.

وتنتمي [دول المحور] إلى نفس فصيلة ما يُسمّى بالديموقراطيات، أو أكثر من ذلك، فصيلة مقاومي الحرب أنفسهم. فهم يبديون في دوائهم الأسرية نفس الحنان والعاطفة والاحترام والكرم التي يرجح أن يبديها مقاومو الحرب حتى خارج هذه الدوائر. ولا يوجد فرق إلا في الدرجة... ولذلك لا يتطلّب الأمر أكثر من قاعدة الثلاثة لمعرفة المقدار المُحدّد بالضبط من اللاعنف الذي يلزم لإذابة أصلب قلوب الفاشيين والنازيين، إذا كان الافتراض، وهو كذلك، بأن ما يُسمّى الديموقراطيات تذوب أمام كمية مُعيّنة من اللاعنف.

وحتى نيرو ليس من دون قلب. فالمشهد غير المتوقع للصفوف تلو الصفوف التي لا نهاية لها من الرجال والنساء الذين يفضلون ببساطة الموت على الاستسلام لإرادة معتدي لا بد في نهاية المطاف أن تُذيبه وتُذيب عسكره.

والواقع أنه لا يتعذّر تمامًا تصوّر أن تُعيد التضحية المحبة للكثير رجلاً مجنوناً إلى رشده. ولا تعوز أمثلة لمجانين جنوناً تاماً عادوا إلى رشدهم.

ولا بد أن يؤثر العمل اللاعنفي -إن كان ملائمًا- في هتلر،
وأن يؤثر بسهولة في الألمان المخدوعين، فلا يمكن أن يحوّل
أي إنسان إلى آلة بصورة دائمة.

ويجب أن ألتمز بإيماني بإمكانية استجابة الطبيعة البشرية
الأكثر وضاعة للاعنف... ولن أستصغر قوة اللاعنف أو أفقد
الثقة في قدرة الفوهرر على الاستجابة للاعنف الحقيقي.

ويقول بعض الناس إنه لا جدوى من ساتياغراها أمام
شخص ليس لديه حسّ أخلاقي. وأضّم صوتي إلى هذه
المسألة. ولا بد أن يذوب أصلب القلوب إذا كنا صادقين
وصبورين. لقد التقيت وحوشًا بشرية منذ صباي المبكر.
ولقد وجدت أن حتى هؤلاء ليسوا وراء الخلاص إذا عرفنا
كيف نضرب على الوتر الصحيح من أرواحهم⁽¹⁾.

ومن الصعب عدم احترام مرونة إيمان غاندي، ولكن من الصعب أيضًا
عدم رؤية العيوب الواضحة فيه. فلو كان هتلر مقتنعًا حقًا بضرورة
مجال حيوي (المساحة الحيّة) وخبث اليهود، وإذا كان توسيع حدود
ألمانيا والقضاء على اليهود وغيرهم من الشعوب «المعيبة» يخدم مصالح
ألمانيا (كما صاغها)، فلماذا تحوله عنه المعاناة المتحالفة مع الحب؟

وفي الواقع، تمامًا كما اعترف غاندي بأن عدم التعاون في مواجهة غزاة

(1) CW, v. 67, p. 405 (“novel”), CW, v. 68, pp. 189 (“fellowfeeling”), 191-92 (“bold”), 277
 (“despair”), CW, v. 69, p. 122 (“species”), CW, v. 71, p. 407 (“Nero”), CW, v. 72, pp. 307
 (“insane”), 361 (“duped”), CW, v. 73, p. 321 (“debased”), CW, v. 84, p. 420 (“patience”),
CW, v. 86, pp. 156 (“monsters”), 302.

المحور ربما كان أدى إلى موت جماعي، وإن كان تخليصياً، فإنه لم يكن مقتنعاً تماماً بفعالية المعاناة الذاتية، بأي حال من الأحوال في ذلك المكان والزمان. ولهذا نصح أيضاً بأنه إذا ثبت أن النازيين أعداء متصلبون، على اليهود أن يذهبوا إلى حتفهم في صمت، لأن من شأن هذه التضحية الكريمة أن تكون خلاصهم النهائي: «إذا كان بالإمكان إعداد العقل اليهودي للمعاناة الطوعية، حتى مذبحه [اليهود على يد هتلر]... يمكن أن تُحوّل إلى يوم للشكر والفرح لكون يهوه صاغ خلاص هذا العرق على يد الطاغية نفسه. فَمَنْ يخشون الله لا يفزعهم الموت. فهو نوم هني يتبعه استيقاظ من شأنه أن يكون منعشاً تماماً للنوم الطويل. ومرةً أخرى: «من المحتمل جداً، وفقاً لقول الكاتب، «أن يؤدي غاندي يهودي في ألمانيا، إذا قُدر لواحد أن يظهر، وظيفته لزهاء خمس دقائق يُؤخذ بعدها على وجه السرعة إلى المقصلة». لكن ذلك لن يدحض دعواي أو يهز إيماني في فعالية «أحيمصا». ويمكنني أن أتصوّر ضرورة التضحية بالمئات، إن لم يكن الآلاف، من أجل تهدئة جوع الطغاة الذين لا يؤمنون بأحيمصا... لا يحتاج الذين يعانون إلى رؤية النتيجة خلال حياتهم. يجب أن يكون لديهم إيمان بأنه إذا نجت عقيدتهم، فإن النتيجة أمر يقيني»⁽¹⁾.

وإذا كان هدف ساتياغراها إذابة قلب هتلر بوعده الخلاص الدنيوي، فإنها لا تؤتي أية ثمار خلال الحياة الأرضية لمن يقاسون، ومن ثمّ يجب أن تُعدّ فشلاً سياسياً. وبعبارة أخرى، إذا كان كل ما لدى غاندي ليقدمه لحواريه هو الافتداء بعد وفاتهم، فمن غير المرجح أن تصل الحركة السياسية التي يقودها بعيداً. فتوقع المكافأة الدنيوية مضمّن في رسالته السياسية. وإلاّ

(1) CW, v. 68, pp. 139 ("thanksgiving"), 405, CW. v. 69, p. 290 ("guillotine").

لماذا كان يُسمى نفسه «المصلح العملي» و«المثالي العملي»؟

وبطبيعة الحال، من طبيعة العمل السياسي أن يحمل في طياته احتمالاً كبيراً للهزيمة، وأن أي انتصار سياسي ذا بال يأتي دائماً -تقريباً- بعد العديد من النكسات والخسائر في الأرواح. ولكن مما يسير خلافاً للعمل السياسي تقديم نصائح باتباع تكتيك ليس له، مهما كان ربيعاً، احتمال النجاح هنا والآن، وسيبدو أن تذويب قلب هتلر بالمعاناة الذاتية سيسقط بشكل نهائي في خانة «لا يتوقع». وبالطبع، يمكن القول إنه مهما فعل يهود أوروبا، فقد كان مصيرهم محتوماً، وإن المقاومة اللاعنافية كانت ستكون، في مواجهة موت مُحقق، شكل الشهادة الأكثر فدائية⁽¹⁾. ومع ذلك، فهذه مسألة منفصلة تماماً ومختلفة عن مسألة ما إذا كانت المعاناة الذاتية تكتيكاً عملياً ضد عدو مُتعصّب. ويجب أن يكون الجواب عن هذا السؤال هو «لا» مؤكدة، وإن كانت مؤسفة.

وما كان يصدق على هتلر كان يصدق أيضاً على عدو غاندي في النضال الملحمي من أجل استقلال الهند. فلم تقنع المعاناة الذاتية للهنود بتأناً تقريبياً ونستون تشرشل بتفكيك الإمبراطورية البريطانية⁽²⁾. فقد انتصرت مصلحة وستمنستر المقرونة بالأيديولوجية بسهولة على معاناة مسحوقى الهند المقرونة بالحب.

ولم يكن لغاندي نفسه يضمن إلا القليل من الأوهام حول ما تمليه السياسة

(1) CW, v. 68, p. 139.

(2) Arthur Herman, Gandhi and Churchill: The epic rivalry that destroyed an empire and forged our age (New York: 2008)

وللاطلاع على كراهية تشرشل لغاندي وسخريته من مقاومته اللاعنافية، انظر الصفحات 209-511 و525؛ وعلى النقيض من ذلك، بشأن احترام غاندي لتشرشل بوصفه «رجلاً عظيماً»، انظر CW, v. 89, p. 254.

البريطانية الرسمية: «إن الفوائد المادية التي تجنيها إنجلترا من الاتصال [بالهند] هي ما يهم الرأي العام البريطاني. وما يُهدد باختفاء تلك الفوائد هو ما يهم أكثر من أي أمر آخر الجماهير الهندية التي لم يعد بمقدورها تحمل هذا العبء الثقيل؛ و«إن الحكومة تثبت لنا، بدلاً من أن تقول لنا، من خلال أفعالها العديدة التي لا لبس فيها أنها مستعدة لفعل أي شيء عدا التضحية بالمصلحة المادية للمدراء، وأرباب الصناعة البريطانيين ومن شاكلهم ممن يعيشون على استغلال الهند؛ و«إن القوات البريطانية لا توجد في الهند لحماية الهند، وإنما لحماية المصالح البريطانية التي فُرضت على الهند، والتي وصلت حالياً درجة من الرسوخ، بحيث لا تستطيع، حتى الحكومة البريطانية، زحزحتها. فالبريطانيون لم يأتوا هنا كمحسنين، كما لا يوجد أي إثارة في استمرار وجودهم هنا»⁽¹⁾.

ولاحظ غاندي كذلك أن «الوزراء الإنجليز ينتهجون ما يعتقدونه سياسة صادقة... إنهم يعتقدون صادقين أن الحكم البريطاني في الهند كان، على العموم، من أجل خير الهند. إنهم يعتقدون بصدق أن الهند قد تقدّمت في ظلّه»⁽²⁾.

وإذا كان ما يُملي السياسة البريطانية هو المصلحة المادية؛ وإذا كان البريطانيون «سيفعلون أي شيء إلا التضحية بالمصلحة المادية»؛ وإذا كانت الأيديولوجيا تُبرّر منطقياً بشكلٍ فعال هذه السياسة القائمة على المصلحة الذاتية، جاعلة إياها لا تبدو حميدة فحسب، وإنما لصالح الهنود:

(1) CW, v. 42, pp. 487-88 (“benefi ts”), CW, v. 43, pp. 222-25 (“unmistakable”), CW, v. 86, p. 50 (“entrenched”).

(2) CW, v. 60, p. 50.

فلا غرو إذن أن استشهد الهنود -خلافًا لتوقعات غاندي الرومانسية- أخفق في تحريك قلوب الإمبرياليين البريطانيين، أو أنه أخفق في جعل «التجارة البريطانية مع الهند... مطهرة من الطمع»، وبالتالي اصطبغت بصبغة «شروط المساعدة المتبادلة و... كانت تناسب الطرفين كليها على حدِّ سواء»؟⁽¹⁾.

وعلى الرغم من أن غاندي تحدّث عن الرغبة في «تحويل مديري النظام»، قال مع ذلك إن «التحوُّل قد يكون طوعيًا أو لا»⁽²⁾. ومرةً أخرى: «تحويلهم أو، إن شئتهم، حتى طردهم من البلاد»⁽³⁾. وعلى المنوال نفسه، على الرغم من أن غاندي تحدّث عن الرغبة في «إيقاظ الضمير العام وكذا ضمير السلطة»، لكنه قال مع ذلك، «على فرض أن هذا الأخير يمكن أن يكون له ضمير أصلاً»⁽⁴⁾. وتشير هذه المحاذير إلى أن غاندي كان يعتمز الاعتماد على أكثر من مجرد قوة الحبِّ لانتزاع الاستقلال عن بريطانيا العظمى.

وفي الواقع، تصور غاندي النضال ضد الامبريالية البريطانية بمعنى يجعل الهند غير قابلة للحكم، وبالتالي غير مربحة. وجمعت طريقتيه في العمل اللاعنف، الذي حيّد الجنود البريطانيين بجعل لجوء البريطانيين إليهم سياسيًا أمرًا متعذرًا؛ والمقاطعة الاقتصادية، التي استهدفت الصادرات البريطانية إلى الهند؛ وعدم التعاون، الذي أسقط السلطة البريطانية بالاستهزاء بها.

(1) CW, v. 43, p. 7.

(2) CW, v. 66, p. 104.

(3) EW, p. 197.

(4) CW, v. 84, p. 327.

وهكذا، وبعيداً عن محاولة إذابة قلوب المؤسّسة الرسمية البريطانية، تنبأ وحذر: «إذا لم يُستجَب لطلب الهند [الحصول على الاستقلال]، فلا بد أن تكون هناك مقاطعة قاسية، وسيتعيّن امتصاص كلّ اهتمام بريطانيا العظمى في محاولتها الاعتناء بمصالحها التجارية المتهاكّة بسرعة في الهند؛» و«إذا رأوا، بالرغم من رغبتهم في خلاف ذلك، أن ينادقهم وكل ما أنشأوه من أجل توطيد سلطتهم عديم الفائدة بسبب عدم استخدامنا له، فلن يجدوا أمامهم غير الرضوخ لما ليس منه بدّ ألا وهو إما الانسحاب من الساحة أو البقاء بشروطنا، أي كأصدقاء للتعاون معنا، وليس كحكام لفرض إرادتهم علينا؛» «وسواء حوّلناهم أم لا، فنحن عازمون على جعل حكمهم مستحيلاً بعدم التعاون اللاعنفي»⁽¹⁾.

وفي مناسبات عديدة، تنكّر غاندي لاستخدام القوة للحصول على الاستقلال: «إنه اعتقادي الراسخ أنه إذا تمسّكت الهند بسبيل السلام حتى النهاية، فلا بد أن تتغيّر قلوب أفسى المسؤولين البريطانيين؛» و«من خلال المعاناة الذاتية أُسعى إلى تحويل [الإنجليزي]، ولا أُسعى أبداً إلى تدميره». ولكن الحق يُقال، فإنه لم يسعَ إلى التحويل الروحي للإمبرياليين البريطانيين المسيئين. وبدلاً من ذلك، توجّه نحو إكراههم، وإن كان ذلك بشكل غير عنيف، لحملهم على الخضوع.

وسعى غاندي جاهداً إلى تسخير القوة الكامنة للشعب الهندي في مواجهة انتقامية سنّاً بسنّ وعيناً بعين مع الإمبراطورية البريطانية. واعترف، في لحظات صراحته، أن أدواته الفعلية لا بد أن تكون هي «قوة الإرادة»

(1) CW, v. 48, pp. 168 (“fi erce”), 352, 472, CW, v. 66, p. 104 (“notwithstanding”), CW, v. 73, p. 254 (“convert”).

و«مضاهاة القوات»، لأن «العقبة الرئيسية في طريق سواراج» هي «عدم رغبة المسؤولين البريطانيين في التخلي عن السلطة»⁽¹⁾. ومرةً أخرى: «هذا القدر مؤكّد، وهذه الحجة ليست ما يأتي بالافتناع. فاقتناع البريطاني سيكون تمامًا بنفس مقدار ما اكتسبناه من قوة». ومرةً أخرى أيضًا: «كيف يمكن تغيير هذه العقلية البريطانية أو، بعبارة أخرى، كيف يمكن انتزاع السلطة من هذه الأيدي التي لا تريد أن تطلقها؟ ليست هناك حجة من شأنها إقناع رجال الدولة هؤلاء؛ فهم جميعًا جنود عبيدون ومحنكون. فهم يحبون ويقدرّون الوقائع، الأفعال. سيفهمون تمرّدًا مفتوحًا»⁽²⁾.

ولكن غاندي كان يعقد الأمل أيضًا على الوصول إلى «الأمة» البريطانية، أي «الرأي العام»، من خلال المعاناة الذاتية: «لقد استخدمت عمدًا كلمة «التحويل». فلست أطمح إلى أقلّ من تحويل الشعب البريطاني من خلال اللاعنّف، وبالتالي جعله يرى حجم إساءته إلى الهند»⁽³⁾. فالإمبرياليون البريطانيون قد تكون لديهم دوافع قوية، لكن ضمير الشعب البريطاني ربما أمكن وخزه مع ذلك. وفي الواقع، يمكن للرأي العام البريطاني أن يكون سلاحًا حاسمًا لإرغام الإمبرياليين البريطانيين الذين مازجت عروقهم الإمبريالية على مغادرة الهند.

(1) CW, v. 42, pp. 209 (“confi rmed”), 484 (“destroy”), CW, v. 43, pp. 5-6 (“matching”), CW, v. 48, p. 231 (“obstacle”), EW, p. 197 (“force of will”).

(2) CW, v. 45, p. 311 (“conviction”), CW, v. 48, pp. 435 (“appreciate”; my emphasis), 454.

(3) CW, v. 43, p. 6 (“deliberately”), CW, v. 45, pp. 366, 390, CW, v. 48, p. 185, NR, p. 74 (“public opinion”), HS, p. 115.

وانظر أيضًا 155, p. 82, CW, v. 82, p. 155. للاطلاع على تمييز غاندي «بين الإنجليز بناءً الإمبراطورية من الطراز القديم... والطراز الجديد القادم الآن إلى حيز الوجود، الذي يتحرّق للتعويض عما فعله أجداده»؛ ولكن قارن مع CW, v. 422, p. 422, CW, v. 48, p. 267, CW, v. 48, p. 435, CW, v. 79, p. 422 لمعرفة حكم غاندي بأن «لشعب البريطاني قدرة على الإيهام الذاتي بشكل لا يوجد عند أي شعب آخر»، ورأيه المتشكك في «الرجل العادي في أوروبا أو أميركا».

وإضافة إلى ذلك، اعتمد غاندي على المجتمع الدولي لوقف يد الإمبريالية البريطانية. ولاحظ خلال مسيرة الملح «أن الحكومة البريطانية، على قوتها... حسّاسة للرأي العالمي الذي لن يتسامح مع قمع التحريض السياسي الشديد الذي يمثله العصيان المدني ولا شك، طالما ظلّ العصيان مدنيًا، وبالتالي، بالضرورة، غير عنيف»⁽¹⁾.

واعترف غاندي في حسابه الختامي أنه، إذا قرّر البريطانيون في نهاية المطاف حزم أمتعتهم والرحيل، فليس ذلك لأنّ الهنود لامسوا شغاف قلوبهم، وإنما لأنهم قد قلبوا البيانات المالية لوزير المالية: «إنّ البريطانيين لا بد مغادرون للبلاد. فهم أمة من رجال الأعمال. وهم يحسبون الربح والخسارة من كلّ معاملة. ولقد أدركوا أن حكم الهند لم يعد مربحًا؛ و«أنا أعرف الإنجليز أكثر من أيّ كان. إنهم مغادرون للهند، لأنهم يعرفون أنه لا يمكنهم تحقيق مكاسب اقتصادية من استمرار حكمهم في الهند، ولاحظوا أنه لم يعد بإمكانهم، من الناحية السياسية، إبقاءنا تحت النير»⁽²⁾.

ولم تكن قوة الحبّ، وإنما القوة الماحقة التي مهّدت السبيل لاستقلال الهند.

(1) CW, v. 43, pp. 179 ("world opinion"), 181, CW, v. 48, p. 397, CW, v. 51, pp. 132-33.

(2) CW, v. 87, p. 75 ("quit"), CW, v. 88, p. 302 ("bett er").

غاندي والمحرقه النازية

أنتقد غاندي انتقادًا لاذعًا لتقمصه جبة الناصح ليهود أوروبا بشأن الاستشهاد أثناء المحرقه النازية، لكنه استنكر أيضًا مرارًا وبحماس منقطع النظير الاعتداء النازي القاتل. فقد أعلن أن «الاضطهاد الألماني لليهود... يبدو بدون مثل في التاريخ. فطغاة العهود القديمة لم يصلوا أبداً مدى الجنون الذي يبدو أن هتلر وصل إليه... إذا أمكن أن تكون هناك حرب مُبرّرة باسم البشرية ومن أجلها، فستكون الحرب ضد ألمانيا، لمنع الاضطهاد الوحشي لعرق برمته، مُبرّرة تمامًا»⁽¹⁾.

ونصح غاندي -بأثر رجعي- بالتضحية بالذات إراديًا بعد حرق الضحايا اليابانيين بالقنبلة الذرية. وكان عليهم أن «يخرجوا إلى مناطق مكشوفة ويجعلوا الطيارين يرون [أنهم] لا يضمرون أي ذرة استياء ضدهم... فلو أن أولئك الآلاف الذين نزل عليهم الموت في هيروشيما... قد ماتوا وهم في ذلك الفعل الخاشع خشوع الصلاة -ماتوا معلنين تلك الصلاة في قلوبهم- فما كانت تضحياتهم لتذهب سدى»⁽²⁾. وكما اتضح سلفًا، أوصى غاندي الأمة التشيكية وغيرها من الضحايا الفعليين والمحتملين لعدوان المحور بالاستشهاد. وخلال سفح الدم بين الأشقاء وقت تقسيم الهند، أعلن غاندي «أنا لا أمانع إذا سيق كل واحد من الـ 500 أسرة [هندوسية] في منطقتك [بشرق البنغال] إلى الموت [على يد المسلمين]» و«إذا قُتل جميع البنجابيين [الهندوس] عن بكرة أبيهم من دون أن يُقتلوا، فسيصبح البنجاب خالداً». وأوصى أيضًا بالوفاة لجميع الكشميريين، بما في ذلك الأطفال -«ينبغي للجميع، صغارًا وكبارًا، أن يموتوا هناك ببسالة»- لمنع تقطيع أوصال المحافظة على يد الغزاة الأجانب⁽³⁾. وباختصار، قد تكون تصريحات غاندي بشأن المحرقه النازية قاسية، ولكن لها أيضًا جدارة الاتساق، وإن كان مشكوكًا فيها.

(1) CW, v. 68, p. 138.

(2) CW, v. 90, p. 522n2.

(3) CW, v. 86, p. 100 ("done"), CW, v. 87, p. 200 ("Punjabis"), CW, v. 89, pp. 454-55 ("everybody").

خلاصة

تجتاح موجة من الثورات الشعبية الكوكب...

وقد كانت، في كثير من الحالات، عملاً من أعمال المقاومة المدنية اللاعنافية التي إما قدحت شرارة الانتفاضة المحليّة أو شكّلت نقطة تحوّلها.

ففي تونس، كان إحراق بائع مُتجوّل لنفسه. وفي القاهرة، كان اعتداء حمقى على ظهور الجمال على المتظاهرين السلميين في ميدان التحرير. وفي مدينة نيويورك، كان الاعتقال الجماعي الطوعي للمتظاهرين على جسر بروكلين.

وهذه الإجراءات «سرّعت» استيقاظ الضمير العام. وفجأة عاد الناس الذين وقفوا لعقودٍ غير مكترثين وسليبين إلى الحياة.

وتردّد صدى أعمال المقاومة اللاعنفية في جمهور واسع بسبب الإجماع القائم سلفاً بأن النظام ظالم.

وتبدو الأحداث الملحمية للعام (2011) روحاً وشكلاً وكأنها صفحة من حياة غاندي.

ولكن من السهل أيضاً أن ترى حدود تعاليم غاندي.

فلا بن علي تونس، ولا مبارك مصر «أذابته» المعاناة الذاتية للشعب. كان لا بد من إجبارهما على مغادرة السلطة. ولا العمدة الليبرالي لأوكلاند، ولا العمدة الليبرالي لنيويورك تركا قلوبهما النازفين يمنعانهما من الإجراء الوحشي لحركة «احتلوا الساحات» («Occupy movement»).

والمعاناة الذاتية قد تحز ضمير 99 في المئة وتحملهم على التحرك. ولكن وحدها القوة المنسقة والشجاعة للغالبية الساحقة ستجعل جماعة 1 في المئة تتزحزح وتنتهي.

واللغة الوحيدة التي تفهمها واحد في المئة، كما سلّم بذلك غاندي في أكثر لحظاته صراحة، هي «تمرّد مفتوح».

ومع ذلك، كان غاندي محقاً في أمر. فمهما كان ثمن المقاومة اللاعنفية غالباً في الأرواح، فإنه ربما كان مع ذلك أقلّ من ثمن التمرّد العنيف، وفي الوقت نفسه يبشّر النضال السلمي بمستقبل أفضل من الكفاح المسلح.

وما إن دخلت قوات أجنبية مسلحة إلى ليبيا «دعمًا» للثورة الشعبية، حتى ارتفعت أعداد الوفيات ارتفاعًا صاروخيًا. فالحجم المحتمل أكبر عدّة مرات من مجموع الوفيات في أي من الثورات الأخرى التي تهز العالم العربي. ونتيجة الانتصار المسلح في ليبيا هي سلطة مرّة أخرى تحت نير قوى خارجية ومن المرجح أن تجعل معظم الليبيين يتوقون قريبًا للعودة إلى أيام القذافي⁽¹⁾.

وحذرّ غاندي من أن «العنف قد يُطيح بحاكم سيئ أو أكثر، ولكن... آخرين سينبتون في أماكنهم».

وسبب التحامل غير المُعلن ضد اللاعنف هو أنه جبان وتعوزه الرجولة، ولكن يصعب رفض اللاعنف كما يتصوّره غاندي بناء على هذين الاعتبارين. وإنه لما يتطلب قدرًا هائلًا من الشجاعة أن يسير المرء أعزل إلى خط إطلاق النار «مبتسمًا» و«مرحًا»، ليُقطع إربًا.

وأصرّ غاندي، في أيامه الأخيرة ووسط الاقتتال الطائفي، على افتتاح صلواته في المعابد الهندوسية بأية من القرآن الكريم. وقد أفاض ذلك المتعصبين الهندوس لدرجة أن واحدًا منهم قتله في نهاية المطاف.

مَنْ يجرؤ على أن يُنكر أن غاندي مات ميته بطولية؟

وإذا كان لا بد من انتقاد يوجّه للاعنف، كما دعا إليه غاندي، فهو أنه يرفع سقف الشجاعة عاليًا جدًّا بالنسبة لمعظم البشر ليقفروا.

(1) Hugh Roberts, "Who Said Qaddafi Had to Go?," London Review of Books (17 November 2011).

وثمة تسليم أساسي لعقيدة غاندي بأن المقاومة اللاعنفية في مواجهة الشر ليست أكثر أخلاقية من العنف فحسب، وإنما يمكن أيضاً أن تحقق النتائج نفسها.

ولا زالت هيئة المحكمين منكبّة على البت في هذا الأمر.

ومن المشكوك فيه يقيناً، كما أشار إلى ذلك أرونداتي روي، إمكانية تحقيق المقاومة اللاعنفية أصلاً لأية نتائج إيجابية في مواجهة عدو شرس يتصرّف بعيداً عن التدقيق العام.

ولكن ما يمكن قوله بثقة هو أن نتائج المقاومة العنيفة كانت في أحسن الأحوال مزيجاً.

وفي اليوم الموالي، يبدو أن الثورات الدامية تُخيب الآمال دائماً، وفي التدافع إلى الأعلى، يبدو أن مَنْ على أيديهم أكبر قدر من الدماء يصلون إلى هناك أولاً.

ويبقى التحديّ أمام جيل الشباب، وهو يباشر النضال لإعادة تشكيل العالم، هو رؤية إلى أي مدى يمكن التقدّم دون الحاجة إلى استخدام العنف.

وكلما تقدّمت الأمور بشكلٍ سلمي، ترجّح أن يكون العالم الجديد أيضاً عالمًا أفضل.

ملحق صور



كارامشاندي غاندي الاب (قبل 1885)



بوتليباي والدة غاندي (حوالي 1880)



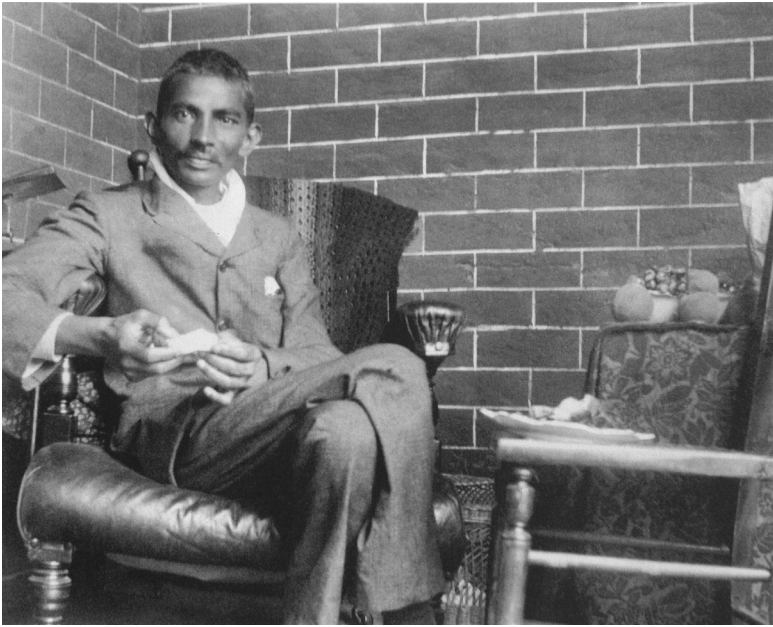
غاندي و زوجته کاستورباي (1902)



كاستورباي غاندي وأبنائها الأربعة (1902)



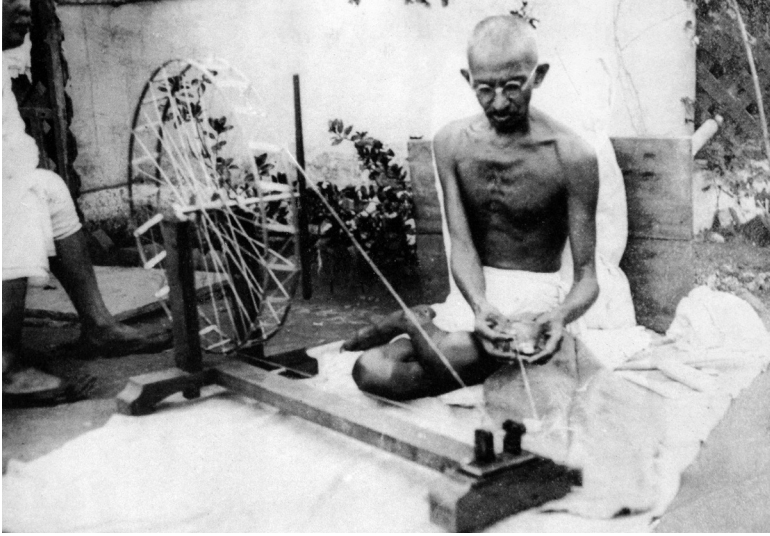
غاندي وشقيقه لاکسميداس (1886)



غاندي (1908)



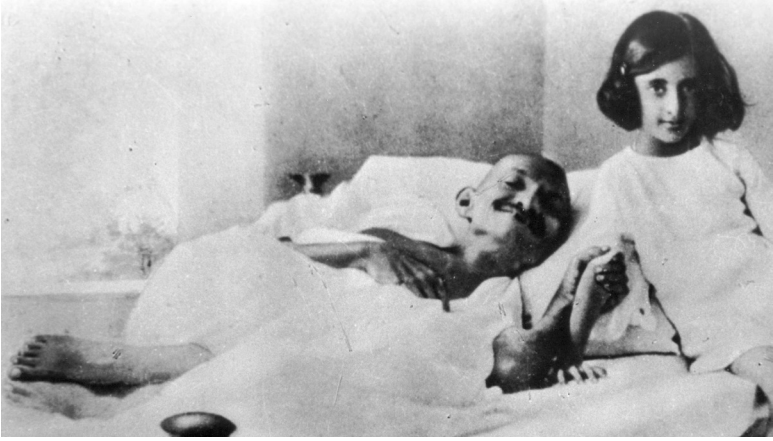
غاندي و زوجته کاستورباي (1914)



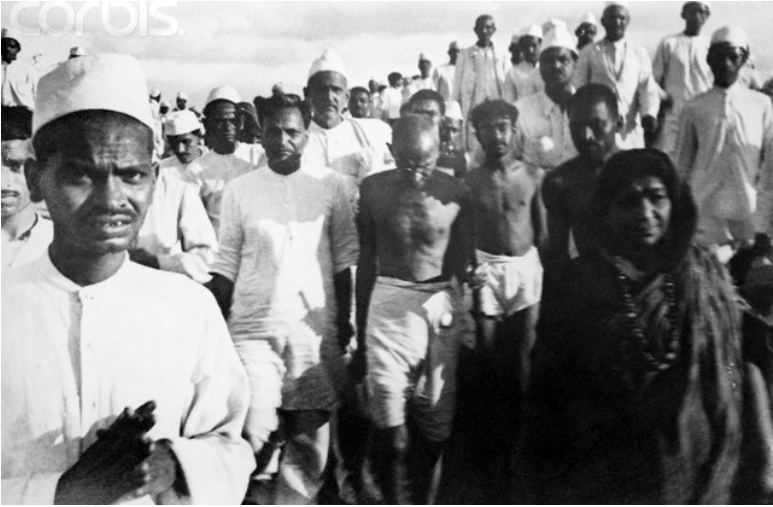
غاندي أمام آلة الغزل (أواخر 1940)



استقبال كبير لغاندي في كراتشي بعد عودته إلى الهند من جنوب إفريقيا (1916)



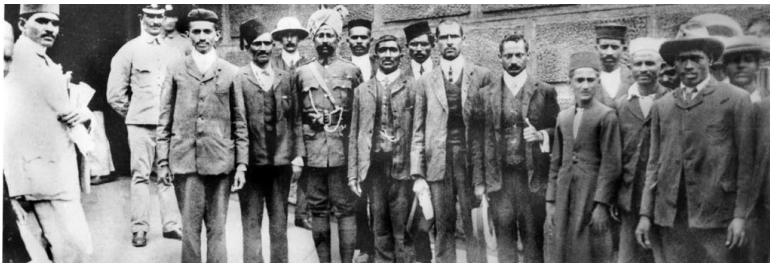
غاندي وبجانبه أنديرا ابنة نهرو ، التي ستتولى رئاسة وزراء الهند (التقطت الصورة عام 1924)



غاندي يتزعم مسيرة الملح (أذار / مارس 1930)



(تشرين الأول/أكتوبر-تشرين الثاني/نوفمبر 1913) غاندي يقود مسيرة احتجاجية من ناتال إلى ترانسفال ضد الضريبة التي فرضتها بريطانيا على المواطنين من ذوي الأصول الهندية في جنوب إفريقيا. رغم اعتقال غاندي والحكم عليه بالسجن تسعة أشهر، إلا أن الإضراب انتشر في أنحاء جنوب إفريقيا، فاضطر البريطانيون إلى إلغاء الضريبة وإطلاق سراحه



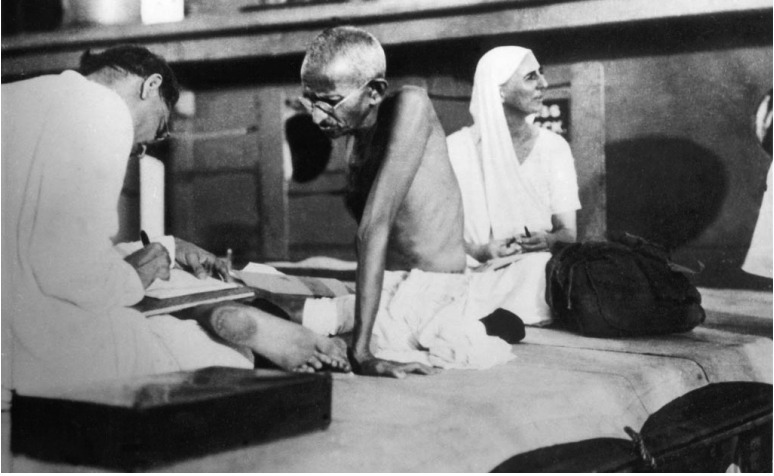
غاندي (جنوب إفريقيا 1908)



غاندي خلال مسيرة الملح (أذار/ مارس 1930)



غاندي والسيدة ساروجيني نايدو في مسيرة الملح (نيسان/أبريل 1930)



غاندي رفقة مهاديف ديساي ومادلين سليد (1931)



وصول غاندي إلى مرسليليا في 11 أيلول / سبتمبر 1931، ثم إلى إنجلترا لحضور مؤتمر المائة المستديرة وفي الصورة اثنتان من الماعز جلبهما معه من الهند لتوفير حصته اليومية من الحليب



لقاء غاندي وأسرته مع تشارلي شابلن (لندن، أيلول / سبتمبر 1931)



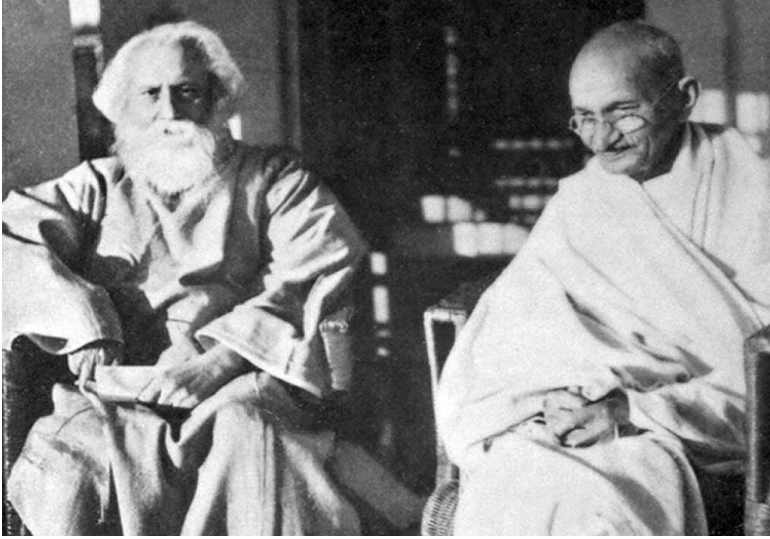
غاندي ومادلين سليد (دارين، إنجلترا، 26 أيلول / سبتمبر 1931)



مع عمال المنسوجات (دارين 26، أيلول / سبتمبر 1931)



خلال اجتماع اللجنة الفرعية للهيكل الاتحادي برئاسة اللورد سانكي، (لندن ، تشرين الثاني / نوفمبر 1931)



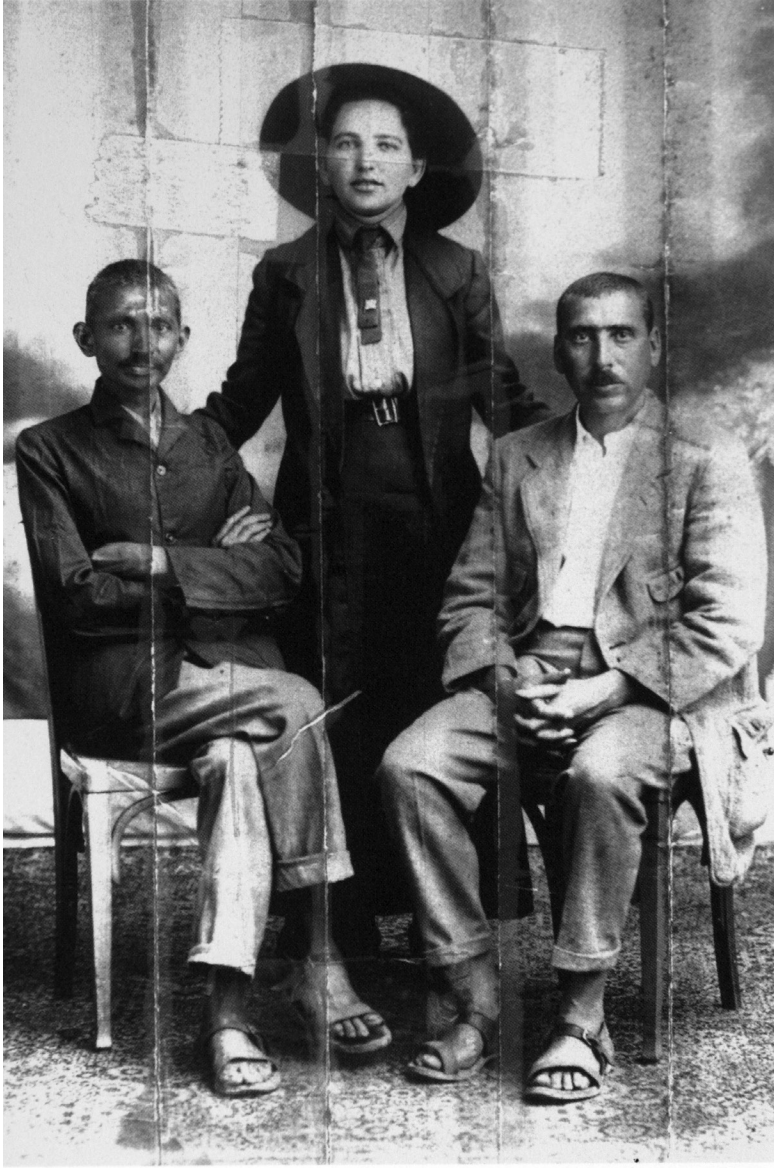
غاندي رفقة الشاعر روبندرونات طاغور (1940)



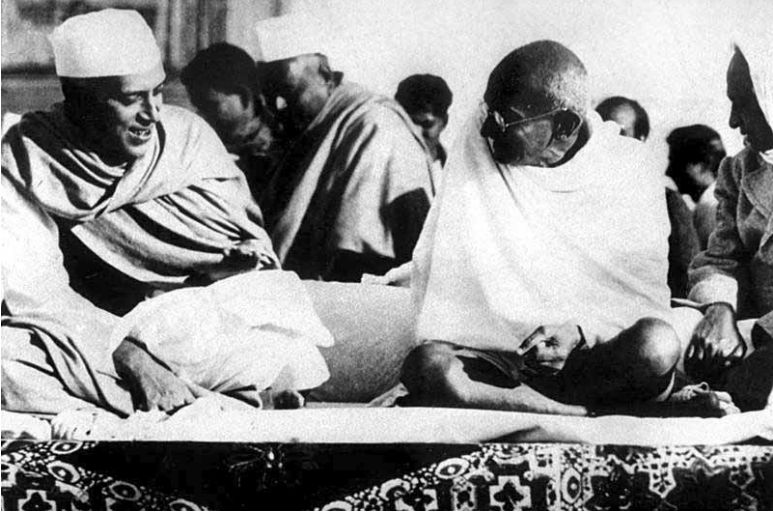
غاندي في روما، حيث سيلتقي مع موسوليني قبل ذهابه إلى لندن (كانون الأول / ديسمبر 1931)



غاندي يزرع شجرة خارج قاعة كينغسلي (لندن، كانون الأول / ديسمبر 1931). دمرت الشجرة أثناء الحرب العالمية الثانية وأعيد زرعها عام 1984



غاندي رفقة صديقه هيرمان كالنباخ ، وسونيا شليزبين سكرتيرة أعمال مزرعة تولستوي في جنوب إفريقيا



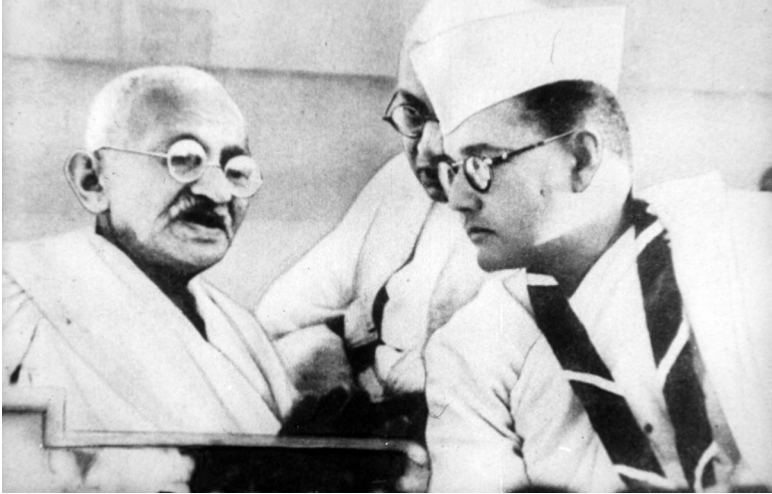
نهر وغاندي في افتتاح المؤتمر الوطني الهندي في هاريبورا (1937)



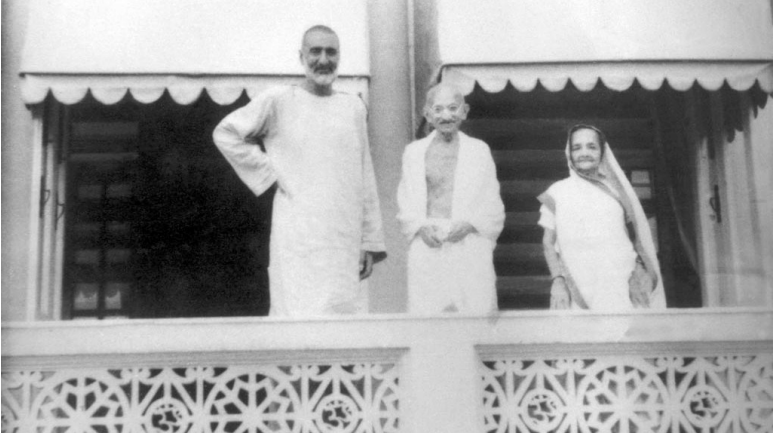
غاندي في هاريبورا (1938)



نهر وغاندي في افتتاح المؤتمر الوطني الهندي (1937)



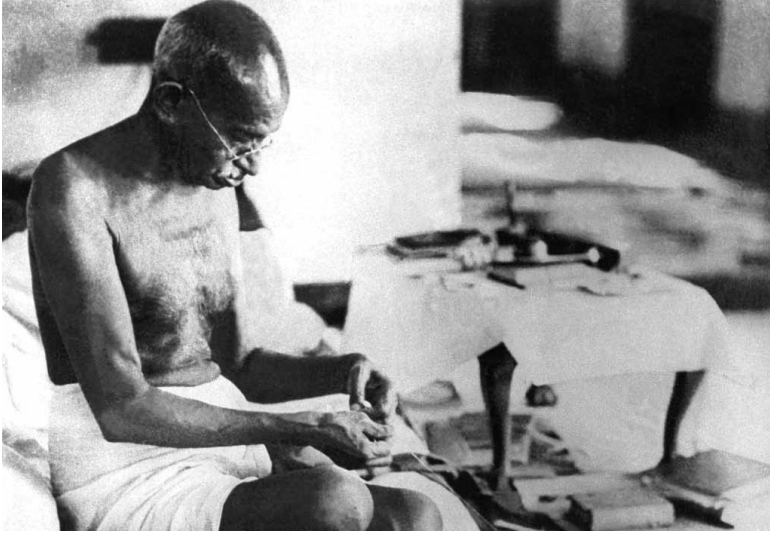
غاندي في الاجتماع السنوي للكونغرس الوطني الهندي (هاريبورا سنة 1938)



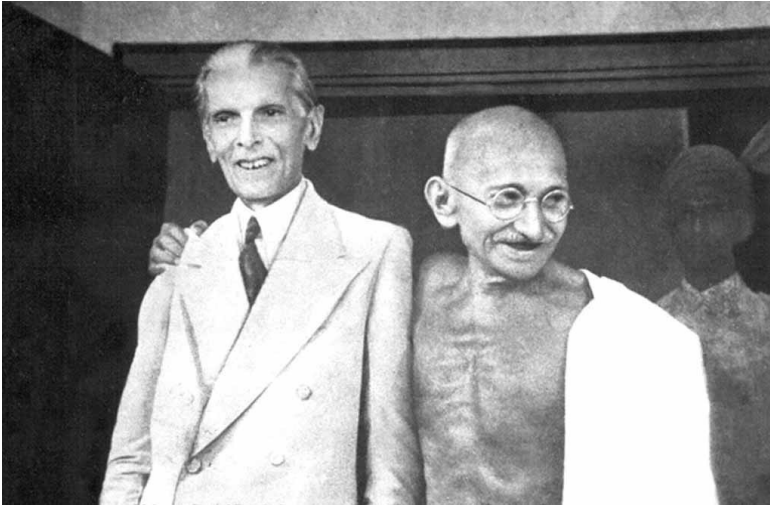
رفقة الزعيم عبد الغفار خان (1940)



صورة التقطت سنة (1942)



غاندي في بيته يغزل الصوف (بومباي ، آب / أغسطس 1942)



رفقة محمد علي جناح (بومباي، أيلول / سبتمبر 1944)



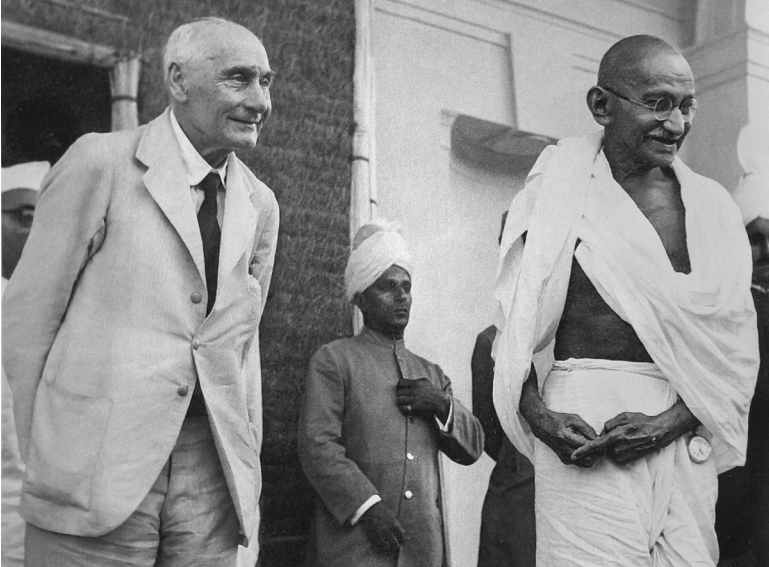
وصول غاندي إلى شيملا، شمال الهند (1945)



نواكشالي (1946)



غاندي ونهرو في اجتماع لجنه الكونغرس الوطني (بومباي، 1946)



غاندي مع اللورد لورانس، قبل مغادرته الهند (دلهي ، نيسان / أبريل 1946)



مع الجنرال يو نو رئيس وزراء بورما (دلهي، كانون الأول / ديسمبر 1947)



غاندي مع اللورد لويس مونتباتن وزوجته (1947)



غاندي في بيته (نيودلهي، تشرين الثاني / نوفمبر 1947)

الفهرس

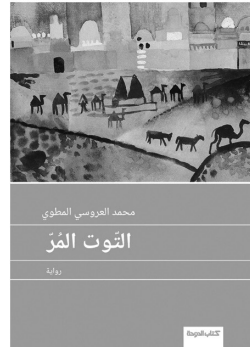
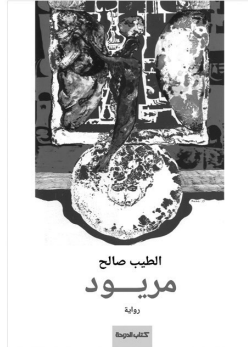
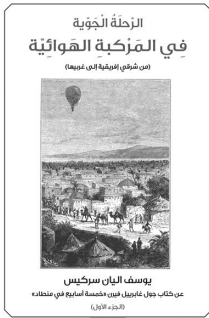
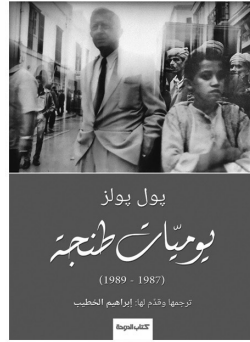
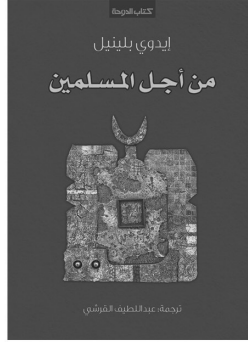
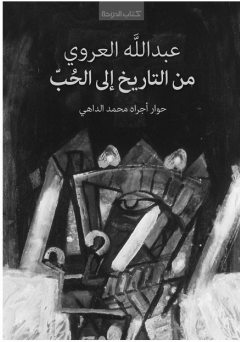
| | |
|-----|-----------------------------------|
| 5 | مُقَدِّمة المُترجم |
| 9 | مُقَدِّمة المُؤلِّف |
| 15 | الفصل الأول: الصوت الداخلي |
| 35 | الفصل الثاني: وسادة الموت |
| 67 | الفصل الثالث: استحثاث الوعي |
| 85 | الفصل الرابع: رجل الشعب |
| 113 | خلاصة |
| 117 | ملحق صور |

صدر من سلسلة كتاب الدوحة

| | | |
|------------------------------|---|----|
| عبد الرحمن الكواكبي | طبايع الاستبداد | 1 |
| غسان كنفاني | برقوق نيسان | 2 |
| سليمان فياض | الأمة الأربعة | 3 |
| عمر فاخوري | الفصول الأربعة | 4 |
| علي عبدالرازق | الإسلام وأصول الحكم - بحث في الخلافة والحكومة في الإسلام | 5 |
| مالك بن نبي | شروط النهضة | 6 |
| محمد بغداداي | صلاح جاهين - أمير شعراء العامية | 7 |
| أبو القاسم الشابي | نداء الحياة - مختارات شعرية - الخيال الشعري عند العرب | 8 |
| سلامة موسى | حزبة الفكر وأبطالها في التاريخ | 9 |
| ميخائيل نعيمة | الغربال | 10 |
| الشيخ محمد عبده | الإسلام بين العلم والمدنيّة | 11 |
| بدر شاكر السياب | أصوات الشاعر المترجم - مختارات من قصائده وترجماته | 12 |
| الطاهر حداد | امرأتنا في الشريعة والمجتمع | 13 |
| طه حسين | الشيخان | 14 |
| محمود درويش | ورد أكثر - مختارات شعرية ونثرية | 15 |
| توفيق الحكيم | يوميات نائب في الأرياف | 16 |
| عباس محمود العقاد | عبقريّة عمر | 17 |
| عباس محمود العقاد | عبقريّة الصديق | 18 |
| علي أحمد الجرجاوي/صبري حافظ | رحلتنا إلى اليابان | 19 |
| ميخائيل الصقال | لطائف السمر في سكان الزهرة والقمر أو (الغاية في البداءة والنهابة) | 20 |
| د. محمد حسين هيكل | ثورة الأدب | 21 |
| ريجيس دوبريه | في مديح الحدود | 22 |
| الإمام محمد عبده | الكتابات السياسيّة | 23 |
| عبد الكبير الخطيبي | نحو فكر مغاير | 24 |
| روحي الخالدي | تاريخ علم الأدب | 25 |
| عباس محمود العقاد | عبقريّة خالد | 26 |
| خمسون قصيدة من الشعر العالمي | أصوات الضمير | 27 |
| يحيى حقي | مرايا يحيى حقي | 28 |
| عباس محمود العقاد | عبقريّة محمد | 29 |
| حوار أجراه محمد الداهي | عبدالله العرووي من التاريخ إلى الحب | 30 |
| | فتاوى كبار الكتاب والأدباء في مستقبل اللّغة العربيّة | 31 |
| ترجمة: شرف الدين شكري | عام جديد بلون الكرز (مختارات من أشعار ونصوص مالك حداد) | 32 |
| خالد النجار | سراج الرّعاة (حوارات مع كُتاب عالميين) | 33 |
| ترجمة: مصطفى صفوان | مقالة في العبودية المختارة (إيتيان دي لابويسيه) | 34 |
| د.بنسالم حمّيش | عن سيرتيّ ابن بطوطة وابن خلدون | 35 |
| ابن طفيل | حي بن يقظان - تحقيق: أحمد أمين | 36 |
| ميشال سار | الإصبع الصغيرة - ترجمة: د.عبدالرحمن بوعلي | 37 |
| محمد إقبال | محمد إقبال - مختارات شعرية | 38 |
| ترجمة: محمد الجرطي | تزييفان تودوروف (تأملات في الحضارة، والديموقراطية، والغيرية) | 39 |
| أحمد رضا حوحو | نماذج بشرية | 40 |

| | | |
|----|---|---|
| 41 | الشرق الفنّان | د.زكي نجيب محمود |
| 42 | تشخوف - رسائل إلي العائلة | ترجمة: ياسر شعبان |
| 43 | إلياس أبو شبكة "العصفور الصغير" | مختارات شعرية |
| 44 | لمادا تأخر المسلمون؟ ولمادا تقدم غيرهم؟ | الأمر شكيب أرسلان |
| 45 | مختارات من الأدب السوداني | علي المك |
| 46 | رحلة إلى أوروبا | جُرجي زيدان |
| 47 | المُعتمد بُ عبّاد في سنواته الأخيرة بالأسر | د.عبدالدين حمروش |
| 48 | تاريخ الفنون وأشهر الصور | سلامة موسى |
| 49 | من أجل المسلمين | إيدوي بلينيل - ترجمة: عبداللطيف القرشي |
| 50 | زينة المعنى (الكتابة، الخط، الزخرفة) | يوسف ذنون |
| 51 | الواسطة في معرفة أحوال مالطة | أحمد فارس الشدياق |
| 52 | النخبة الفكرية والانشقاق | د. مُحسن الموسوي |
| 53 | ياسمينة وقصص أخرى | إيزابيل إيرهاردت |
| 54 | أباي (كتاب الأقوال) | ترجمة وتقديم: بوداود عمير |
| 55 | مأساة واق الواق | ترجمة: عبدالسلام الغرياني |
| 56 | بين الجُزر والمدّ (صفحات في اللُغة والآداب والفنّ والحضارة) | محمد محمود الزبيري |
| 57 | ظلّ الذّكرة (حوارات ونصوص من أرشيف «الدوحة») | مي زيادة |
| 58 | الرحلة الفنّية إلى الديار المصرية (1932) تحقيق: رشيد العفاقي | قسم التحرير «مجلة الدوحة» |
| 59 | قيصر وكليوبترا | أليكسي شوتان - تعريب: عبد الكريم أبو علو |
| 60 | الصين وفنون الإسلام | إسماعيل مظهر |
| 61 | براعم الأمل (مُختارات شعريّة للكاتب الصيني وانغ جو جن) | ترجمة: مي عاشور |
| 62 | الثوّت المُرّ | محمد العروسي المطوي |
| 63 | درب الغرب | غونار إيكليوف |
| 64 | من والد إلى ولده | أحمد حافظ بك |
| 65 | التلميذ | بول بُورجيه |
| 66 | ملحمة جلجامش | تقديم وترجمة: طه باقر |
| 67 | أريجُ الرُّهر | الشيخ مصطفى الغلاييني |
| 68 | اعترافات إنسان | محمد فريد سيالة |
| 69 | مريود | الطيب صالح |
| 70 | المقالات الصحفية | عبدالله كنون |
| 71 | قصص قصيرة | نجيب محفوظ |
| 72 | بول بولز - يوميات طنجة | إبراهيم الخطيب |
| 73 | فنّ الحياة | سلامة موسى |
| 74 | أَقْوَمُ الْمَسَالِكِ فِي مَعْرِفَةِ أحوالِ الْمَمَالِكِ | خير الدين التونسي |
| 75 | كتاب الأخلاق | أحمد أمين |
| 76 | رَحْلَةُ جَبَّيْنُهُ رَحْلَةُ صَعْبَةٍ | فدوى طوقان |
| 77 | قطاف (مُختارات من القِصَّة القصيرة في قَطْر) | مجموعة من الكتاب |
| 78 | الرحلة الجوية في المركبة الهوائية (من شرقي إفريقيا إلى غربيها) الجزء الأول | المؤلف: جول غابرييل فيرن، ترجمة: يوسف البان سركيس |
| 79 | الرحلة الجوية في المركبة الهوائية (من شرقي إفريقيا إلى غربيها) الجزء الثاني | المؤلف: جول غابرييل فيرن، ترجمة: يوسف البان سركيس |
| 80 | مذكرات دجاجة | إسحق موسى الحسيني |

من إصدارات سلسلة كتاب الدوحة



في هذا الكتاب القصير، ينزع الباحث والمناضل نورمان فنكلستاین التلّيف المُزخرف اللامع الذي غطّى على غاندي الرسالة والنضال وأحاله إلى عناوين وياقظات كما تحوّل في وقتٍ ما عبد الكريم الخطابي وتشّي غيفارا إلى سطر أو فقرة في مقالة في ذكرى سنوية. أزال التلّيف ليُخْرِج غاندي الإنسان بكلّ قواه وضعفه، بكلّ صفائه وتناقضاته...

يُثبت فنكلستاین أن غاندي، خلافاً لجلباب المسكنة الذي ألبسه قسراً، رفع الشجاعة إلى سماوات ربما قلّما رفعها إليها أحد. من وسط الحشود المظلومة، قلة قليلة لها الاستعداد لحمل السلاح لرفع الظلم عن كاهلها والدفاع عن حقوقها. لكن قلة أقل، أو قلّ أناساً من طينةٍ أخرى، مَنْ يستطيعون إلقاء سلاحهم جانباً ليواجهوا المدفع بصدورهم العارية. هنا أبداع غاندي في نحت المُقاتل الأعزل، وسار به إلى الانتصار.

